باب بر الوالدين

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦] فقرن تعالى ذكره إلزام بر الوالدين بعبادته وتوحيده وأمر به كما أمر بهما، كما قرن شكرهما بشكره في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وكفى بذلك دلالةٌ على تعظيم حقهما ووجوب برهما والإحسان إليهما.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى آخر القصة وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال في الوالدين الكافرين: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾ [لقمان: ١٥].

وروى عبد الله بن أنيسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: **«أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين واليمين الغموس، والذي نفس محمدٍ بيده لا يحلف أحدٌ وإن كان على مثل جناح البعوضة إلا كانت وكتة في قلبه إلى يوم القيامة»**.

قال أبو بكرٍ: فطاعة الوالدين واجبةٌ في المعروف لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

وقد حدثنا محمد بن بكرٍ قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا سعيد بن منصورٍ قال: حدثنا عبد الله بن وهبٍ قال: أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ الخدري: (أن رجلا من اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال: **«هل لك أحدٌ باليمن؟»** قال: أبواي، قال: أذنا لك؟ قال: لا، قال: **«ارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما»**.

ومن أجل ذلك قال أصحابنا: لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين إذا قام بجهاد العدو من قد كفاه الخروج، قالوا: فإن لم يكن بإزاء العدو من قد قام بفرض الخروج فعليه الخروج بغير إذن أبويه، وقالوا في الخروج في التجارة ونحوها فيما ليس فيه قتالٌ: لا بأس به بغير إذنهما؛ لأن النبي ﷺ إنما منعه من الجهاد إلا بإذن الأبوين إذا قام بالفرض غيره، لما فيه من التعرض للقتل وفجيعة الأبوين به، فأما التجارات والتصرف في المباحات التي ليس فيها تعرضٌ للقتل فليس للأبوين منعه منها؛ فلذلك لم يحتج إلى

استئذانهما.

ومن أجل ما أكد الله تعالى من تعظيم حق الأبوين قال أصحابنا: لا ينبغي للرجل أن يقتل أباه الكافر إذا كان محارباً للمسلمين، لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾ [لقمان: ١٥]، فأمر تعالى بمصاحبتهما بالمعروف في الحال التي يجاهدانه فيها على الكفر، ومن المعروف أن لا يشهر عليهما سلاحاً ولا يقتلهما إلا أن يضطر إلى ذلك بأن يخاف أن يقتله إن ترك قتله، فحينئذٍ يجوز قتله؛ لأنه إن لم يفعل ذلك كان قد قتل نفسه بتمكينه غيره منه، وهو منهي عن تمكين غيره من قتله كما هو منهي عن قتل نفسه، فجاز له حينئذٍ من أجل ذلك قتله وقد روي عن النبي ﷺ : (أنه نهى حنظلة بن أبي عامرٍ الراهب عن قتل أبيه وكان مشركاً).

وقال أصحابنا في المسلم يموت أبواه وهما كافران: إنه يغسلهما ويتبعهما ويدفنهما؛ لأن ذلك من الصحبة بالمعروف التي أمره الله بها.

فإن قال قائلٌ: ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾ وما ضميره؟ قيل له: يحتمل: استوصوا بالوالدين إحساناً، ويحتمل: وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله تعالى: ﴿ وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ أمرٌ بصلة الرحم والإحسان إلى القرابة، على نحو ما ذكره في أول السورة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ [النساء: ١]، فبدأ تعالى في أول الآية بتوحيده وعبادته؛ إذ كان ذلك هو الأصل الذي به يصح سائر الشرائع والنبوات وبحصوله يتوصل إلى سائر مصالح الدين، ثم ذكر تعالى ما يجب للأبوين من الإحسان إليهما وقضاء حقوقهما وتعظيمهما، ثم ذكر الجار ذا القربى وهو قريبك المؤمن الذي له حق القرابة وأوجب له الدين الموالاة والنصرة، ثم ذكر الجار الجنب وهو البعيد منك نسبا إذا كان مؤمناً فيجتمع حق الجوار وما أوجبه له الدين بعصمة الملة وذمة عقد النحلة.

وروي عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادة والضحاك قالوا: " الجار ذو القربى القريب في النسب ".

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الجيران ثلاثةٌ: فجارٌ له ثلاثة حقوقٍ: حق الجوار،**

وحق القرابة وحق الإسلام، وجارٌ لـــه حقان حق الجوار وحق الإسلام، وجارٌ لـــــه حـــق الجوار: المشرك من أهل الكتاب».

وقولـــه تعـالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ روي فيـه عـن ابـن عبـاسٍ فـي إحـدى الروايتين وسعيد بن جبيرٍ والحسن ومجاهدٍ وقتادة والسدي والضحاك: " أنـه الرفيق في السفر " وروي عن عبد الله بن مسعودٍ وإبراهيم وابن أبي ليلى: " أنـه الزوجـة "، وروايـةٌ أخرى عن ابن عباسٍ: " أنه المنقطع إليك رجاء خيرك ".

وقيل: " هو جارِ البيت دانياً كان نسبه أو نائياً إذا كان مؤمناً ".

قال أبو بكرٍ: لما كان اللفظ محتملا لجميع ذلك وجب حملـه عليـه وأن لا يخص منـه شيءٌ بغير دلالةٍ، وقد روي عن النبـي ﷺ أنـه قـال: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حـــتى ظننت أنه سيورثه».**

وروى سفيان عن عمرو بن دينـارٍ عن نـافع بـن جبير بـن مطعمٍ عن أبـي شريح الخزاعي قـال: قـال رسـول الله ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».**

وروى عبيد الله الوصافي عن أبي جعفرٍ قال: قال رسول الله ﷺ : **«ما آمـــن مـــن أمسى شبعان وأمسى جاره جائعاً».**

وروى عمر بن هارون الأنصاري عن أبيه عن أبي هريرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ : **«من أشراط الساعة سوء الجوار وقطيعة الأرحام وتعطيل الجهاد».**

وقد كانـت العرب فـي الجاهليـة تعظـم الجوار وتحـافظ علـى حفظـه وتوجـب فيـه مـا توجب في القرابـة، قـال زهيرٌ: وجـار البيت والرجل المنـادي أمـام الحـي عقدهما سواء يريد بالرجل المنادي من كان معك في النادي، وهو مجلس الحي.

وقال بعض أهل العلم: معنـى الصـاحب بالجنب أنـه الجـار الذي يلاصق داره داره وإن الله خصه بالذكر تأكيداً لحقه على الجار غير الملاصق.

وقد حدثنا عبد الباقي بن قانعٍ قال: حدثنا أبو عمرٍو محمدٍ بن عثمـان القرشـي وراق

أحمد بن يونس قال: حدثنا إسماعيل بن مسلمٍ قال: حدثنا عبد السلام بن حربٍ عن أبي خالدٍ الدالاني عن أبي العلاء الأزدي عن حميد بن عبد الرحمن الحميري عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ قال: **«إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما باباً، فإن أقربهما باباً أقربهما جواراً، وإذا سبق أحدهما فابدأ بالذي سبق»**.

وقد روي عن النبي ﷺ : **«أن أربعين داراً جوارٌ»**.

وحدثنا عبد الباقي بن قانع قال: حدثنا الحسن بن شبيبٍ المعمري قال: حدثنا محمد بن مصفى قال: حدثنا يوسف بن السفر عن الأوزاعي عن يونس عن الزهري قال: حدثني عبد الرحمن بن كعبِ بن مالكٍ عن أبيه قال: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: (إني نزلت بمحلة بني فلانٍ وإن أشدهم لي أذى أقربهم من جواري، فبعث النبي ﷺ أبا بكرٍ وعمر وعلياً أن يأتوا باب المسجد فيقوموا على بابه فيصيحوا ثلاثا: **«ألا إن أربعين دارا جوارٌ ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»** قال: قلت للزهري: يا أبا بكرٍ أربعين داراً؟ قال: أربعين هكذا وأربعين هكذا.

وقد جعل الله الاجتماع في مدينة جواراً، قال الله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) فجعل تعالى اجتماعهم معه في المدينة جواراً.

والإحسان الذي ذكره الله تعالى يكون من وجوهٍ: منها المواساة للفقير منهم إذا خاف عليه الضرر الشديد من جهة الجوع والعري، ومنها حسن العشرة وكف الأذى عنه والمحاماة دونه ممن يحاول ظلمه وما يتبع ذلك من مكارم الأخلاق وجميل الفعال.

ومما أوجب الله تعالى من حق الجوار الشفعة لمن بيعت دارٌ إلى جنبه؛ والله الموفق. ا هـ(أحكام القرآن للجصاص ج 3 ص 155 - 158).

من فوائد ابن العربى فى الآية: قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ بر الوالدين ركنٌ من أركان الدين في المفروضات كما تقدم، وبرهما يكون في الأقوال والأعمال؛ فأما في الأقوال فكما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإن لها حق الرحم المطلقة، وحق القرابة الخاصة؛ إذ أنت جزءٌ منه، وهو أصلك الذي أوجدك، وهو القائم بك حال ضعفك وعجزك عن نفسك.

وقد(عرض رجلٌ لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال: يا رسول الله، إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج.

فقال النبي ﷺ : **«إن الله سبحانه منع مني سبي بني مدلجٍ لصلتهم الرحم»**.

وفي الإسرائيليات: أن يوسف لما دخل عليه أبواه فلم يقم لهما قال الله عز وجل: وعزتي لا أخرجت من صلبك نبياً، فلا نبي فيهم من عقبه[1].

وفي الحديث: (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه)؛ ومن حقه أن يرجع في هبته، وأن يأكل من مال ولده؛ قال النبي ﷺ : **«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»**.

وقد بيناه في مسائل الخلاف.

فإن قيل: إذا أخذ الوالد الهبة من الولد أغضبه فعقه، وما أدى إلى المعصية فمعصيةٌ.

قلنا: أما إذا عصى أخذ بالشرع فلا عذر، إنما يكون العذر لمن أطاع الله أو عصى الله فيه.

فإن قيل: هل من بر الرجل بوالده المشرك ألا يقتله؟ **قلنا**: من بره بنفسه أن يتولى قتله.

(قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول مستأذنا في قتل أبيه رسول الله ﷺ : **«إن أذنت لي في قتله قتلته»** وهكذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وللرحم حق، ولكن لما جاء حق الله تعالى بطل حق الرحم.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ حرمة الجار عظيمةٌ في الجاهلية والإسلام معقولةٌ مشروعةٌ مروءة وديانة؛ قال النبي ﷺ : **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»**.

وقال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»**.

" والجيران ثلاثةٌ: جارٌ له حق واحدٌ، وهو المشرك، وجارٌ له حقان: الجار المسلم،

(1) هذا باطل لا أصل له. والله أعلم.

وجارٌ لـه ثلاثة حقوقٍ: الجار المسلم لـه الرحم ".

وهما صنفان قريبٌ وبعيدٌ، وأبعده في قول الزهري من بينك وبينه أربعون داراً.

وقيل: البعيد من يليك بحائطٍ، والقريب من يليك ببابه؛ لقول النبي ﷺ لرجلٍ قال لـه: **«إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً»**.

وحقوقه عشرةٌ يجمعها الإكرام، وكف الأذى.

ومن العشرة الحديث الصحيح: (لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره).

وقد رأى جميع العلماء أن يكون ذلك ندباً لا فرضاً، وأن يكون منعه مكروهاً لا محرماً؛ لأن كل أحدٍ أحق بماله.

والحائط يحتاجه صاحبه؛ فإن أعطاه نقص ماله، وإن أعاره تكلف حفظه بالإشهاد، وأضر بنفسه؛ فإن شاء أن يحتمل لـه ذلك فله الأجر، وإن أبى فليس عليه وزرٌ.

المسألة السابعة: الصاحب بالجنب: قيل: إنه الجار الملاصق، والذي قال هذا جعل قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الجار الذي لـه الرحم.

وقيل: إنه الذي يجمعك معه رفاقة السفر، فهو ذمامٌ عظيمٌ، فإنه يلفه معه الأنس والأمن والمأكل والمضجع، وبعضها يكفي للحرمة، فكيف إذا اجتمعت؟. ا هـ(أحكام القرآن لابن العربى ج 1 ص 545 - 547) بتصرف يسير.

فوائد لغوية: قال ابن عادل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وتقدم الكلام على نظير هذا في البَقَرَةِ، واتَّفقوا على أن ههنا مَحْذوفاً، والتَّقْدير: " وأحسنوا بالوالدين إحساناً "؛ كقوله: "فضرب الرقاب " أي: فاضْرِبُوها، وقرأ ابن أبي عَبْلَة: " إحسان " بالرَّفع على أنَّه مُبْتَدأ، وخبره الجَارّ والمجرور قَبْلَهُ.

والمراد بهذه الجُملَةِ: الأمر بالإحسان وإن كانت خبريةً؛ كقوله - تعالى -: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

قوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فأعاد الباء، وذلك لأنها في حق هذه الأمَّة، فالاعتناء بها أكثر، وإعادة الباء تدل على زيادة تأكيد فناسب ذلك هنا، بخلاف آية البَقَرَة، فإنَّها في حقِّ بني إسْرائيل، والمراد الأمْر بصلة الرَّحم، كما ذكر في أول السُّورة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾

[النساء: ١].

وقولـه: ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الجمهور على خفض الجارّ، والمراد به القَرِيب النَّسِيب، وبالجار الجُنُب: البعيد النَّسِيب.

وعن مَيْمُون بن مَهْرَان: والجار ذِي القُرْبَى، أُريد به الجار القريب، قال ابن عطيَّة: وهذا خطأ؛ لأنَّه على تأويله جمع بين ألَ والإضافة، إذ كان وَجْه الكَلاَم: وجار ذي القُرْبَى الجار القريب، ويمكن جوابُه على أن ذِي القُرْبَى، بدل من الجارِّ على حَذْفِ مُضَافٍ، أي: والجار ذِي القُرْبَى؛ كقولـه: الخفيف.

نَصَرَ اللهُ أعْظُماً دَفَنُوهَا ::: بسجِسْتَانَ طَلحة الطَّلحَاتِ

أي: أعْظُم طَلْحَة، ومن كلامهم لو يعلمُون العِلْم الكبيرة سنة، أي: علم الكبيرة سنّه، فحذف البَدل لدلالة الكلام عليه.

وقرأ بعضهم: " والجار ذا القربى: نصباً، وخرجه الزَمَخْشَري على الاخْتِصَاص لقولـه - تعالى -: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] والجُنُب صِفَة على فُعُل، نحو: " ناقة سُرُح "، ويَسْتَوي فيه المُفْرَدَ والمثَنَّى والجُمُوع، مذكراً أو مؤنثاً، نحو: "رجال جنب " وقال - تعالى -: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا ﴾ [المائدة: ٦]، وبعضهم يثنيه ويجمعه، ومثله: شُلُل، وعن عَاصِم: والجَار الجَنْبِ، بفتح الجيم وسُكُون النون وهو وَصْفٌ أيضاً بمعنى المُجَانِب، كقولهم: رجل عَدْل، وألفُ الجَار عن واو؛ لقولهم: تجاورُوا، وجَاوَرْتُه، ويُجْمَع على جيرة وجيَران، والجَنَابَةِ البُعْد؛ قال الطويل

فَلاَ تَحْرِمَنِّي نَائلاً عَنْ جَنَابَةٍ ::: فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ القباب غَرِيبُ

لأن الإنْسَان يُتـركُ جَانبـاً، ومنـه: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وأصله من الجَنَابَة، ضِدّها القَرَابَة، وهو البُعْدُ، يقال: رَجُلٌ جُنُبٌ، إذا كان غريباً مُتَبَاعِداً عن أهله، ورَجُل أجْنَبِيٌّ، وهو البَعيد منك في القَرَابة، ومنه الجَنَابَة من الجِمَاع؛ لتباعده عن الطَّهَارَةِ وعن الصَّلاة حَتَّى يَغْتَسِل، وهذان الجنبان؛ لبُعْد كلِّ واحدٍ منهما عن الآخر.

وقولـه: ﴿ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ في الباء وجْهَان:

أحدهما: أن تكون بمعنى " في ".

والثاني: أن تكون على بَابها وهو الأوْلى، وعلى كلا التَّقْدِيرَيْن تتعلّق بمحذُوف؛ لأنها

حَالٌ من الصَّاحِبِ.

قولـه: ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قيل: هو المُسافِر الذي انْقَطع عن بلده، وقيل: هو الضَّيْف، قال - عليه السَّلام -: **«من كان يُؤمِن بالله واليَوْمِ الآخر فليُكْرِم ضَيْفَهُ»**.

وقولـه: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣] يجوز أن يُرَاد بـ " ما " غير العَبِيد والإمَاء حَمْلاً على الأنْوَاع؛ لقولـه - تعالى -: ﴿ مَا طَابَ لَكُم ﴾ [النساء: ٣] وأن يكون أُريد جميع ما مَلَكَهُ الإنسان من الحَيَوانات، فاختلط العَاقِلُ بغيره، فأتى بـ " ما ".

قولـه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾: المُخْتَال هو ذُو الخُيَلاء والكِبْر.

قال أهل اللغة: هو التيَّاه، والمُخْتَال اسم فاعِلٍ من اخْتَال يَخْتَال، أي: تَكَبَّر وأعْجِب بنَفْسِهِ، وألفهُ عن ياءٍ؛ كقولهم: الخُيَلاءُ والمَخِيلة، وسُمِع أيضاً: خَالَ الرَّجُل يخال خَوْلاً بالمعنى الأوَّل، فيكون لهذا المَعْنَى مَادَّتَان خَيْلَ وَخَوَلَ.

قال ابن عبَّاس: " يريد المُخْتَال العَظِيم في نَفْسِهِ، الذي لا يَقُوم بحقُوقُ أحَد ".

والفَخُور صيغة المُبَالَغَة، وهو الَّذِي يعد مَنَاقِبَ نَفْسِه ومحاسنه، وقال ابن عبَّاس: الفَخُور الذي يَفْخَر على عِبَاد الله بما أعْطَاه من أنْواع نِعَمِهِ.

وقال - عليه السلام -: **«بينما رجل يتبختر في بردين، وقد أعْجَبَتْه نَفْسُه، خسف الله به الأرْض، فهو يتجْلجَل فيها إلى يَوْم القِيامَةِ»**.

وقال - عليه السلام -: **«لا يَنْظُر الله إلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيْلاَء يوم القِيامَة»**. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 6 ص 370 - 376). بتصرف يسير.

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية: قال عليه الرحمة: قولـه: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾: العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر.

﴿ وَلَا تُشْرِكُواْ ﴾ الشِّركُ جَلِيُّه اعتقادُ معبودٍ سواه، وخفِيُّه: ملاحظةٌ موجود سواه، والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ بالله، قائمةٌ به؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها، وليس لأحد ذوة ولا شظية ولا سينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع.

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلْق، واستحلاء مدحهم والذبول تحت ردّهم وذمِّهم - كلُّ ذلك من الشِّرْكِ الخَفِّي.

قولـه: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ الإحسان إلى الوالدين على وجه التدريج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جِنْسِك ومنها تربيتك، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك. وإذا صَلُحْتَ للصحبة والعِشْرة مع ذوي القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن في طبقتهم - رُقِّيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته - سبحانه.

قولـه: ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾... الآية من جيرانك (....) فلا تؤذوهما بعصيانك، وراع حقهما بما تُولِي عليهما من إحسانك.

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجارُ نفسِك - وهو قلبك - أوْلى بألا تضيِّعه ولا تَغْفَل عنه، ولا تُمكِّنَ حلول الخواطر الرديئة به.

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك - وهو روحك - أوْلى أن تحامي على حقّها، ولا تُمكّن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها. وجار روحك - وهو سِرُّك - أوْلى أن ترعى حقه، فلا تمكنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات.

قولـه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوي التحقيق. ا هـ(لطائف الإشارات ج 1 ص 331 - 332).

التقوى: قولـه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء: ١٣١].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعي: ولما كان مبنى هذه السورة على التعاطف والتراحم والتواصل، لم يذكر فيها الطلاق إلا على وجه الإيماء في هذه الآية على وجه البيان لرأفته وسعة رحمته وعموم تربيته، وفي ذلك معنى الوصلة والعطف، قال ابن الزبير: ولكثرة ما يعرض من رعى حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة - ويدق ذلك ويغمض - لذلك ما تكرر كثيراً في هذه السورة الأمرُ بالاتقاء، وبه افتتحت: ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١]، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١]، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣١].

ولما ذكر تعالى آية التفرق وختمها بصفتي السعة والحكمة دل على الأول ترغيباً في سؤاله: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ أي الذي له العظمة كلها: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ولما كان في

السياق بيان ضعف النفوس وجبلها على النقائص، فكانت محتاجة إلى تقوية الكلام المخرج لها عما ألفت من الباطل قال: ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وعلى الثانية بالوصية بالتقوى لأنه كرر الحث على التقوى في هذه الجمل في سياق الشرط بقوله: ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [النساء: ١٢٩] فأخبر تعالى بعد اللطف بذلك السياق أن وصيته بها مؤكدة، لم تزل قديماً وحديثاً، لأن العلم بالمشاركة في الأمر يكون أدعى للقبول، وأهون على النفس، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ أي على ما لنا من العظمة.

ولما كان الاشتراك في الأحكام موجباً للرغبة فيها والتخفيف لثقلها، وكانت الوصية للعالم أجدر بالقبول قال: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة والإنجيل وغيرهما وبنى الفعل للمجهول لأن القصد بيان كونهم أهل علم ليرغب فيما أوصوا به، ودلالة على أن العلم في نفسه مهيىء للقبول، ولإفادة أن وصيتهم أعم من أن تكون في الكتاب، أو على لسان الرسول من غير كتاب، ولما كان إيتاؤهم الكتاب غير مستغرق للماضي وكذا الإيصاء قال: ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل وغيرهم: ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي ووصيانكم مثل ما وصيناهم؛ ولما كانت التوصية بمعنى القول فسرها بقوله: ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي الذي لا يطاق انتقامه لأنه لا كفوء له.

ولما كان التقدير: فإن تتقوا فهو حظكم وسعادتكم في الدارين، عطف عليه قوله: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ ﴾ أي بترك التقوى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ ﴾ أي الذي له الكمال المطلق: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ولما كان السياق لفرض الكفر حسن التأكيد في قوله: ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ منكم ومن غيركم من حيوان وجماد أجساداً وأروحاً وأحوالاً.

ولما كان المعنى: لا يخرج شيء عن ملكه ولا إرادته، ولا يلحقه ضرر بكفركم، ولم تضروا إن فعلتم إلا أنفسكم، لأنه غني عنكم، لا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات؛ أكده بقوله دالاً على غناه واستحقاقه للمحامد: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له الإحاطة كلها: ﴿ غَنِيًّا ﴾ أي عن كل شيء الغنى المطلق لذاته: ﴿ حَمِيدًا ﴾ أي محموداً بكل لسان قالي وحالي، كفرتم أو شكرتم، فكان ذلك غاية في بيان حكمته. ا هـ(نظم الدرر ج 2 ص 330 - 331)

وقال الفخر:

وفي تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول: أنه تعالى لما ذكر أنه يغني كلاً من سعته، وأنه واسع أشار إلى ما هو كالتفسير لكونه واسعاً فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني من كان كذلك فإنه لا بدّ وأن يكون واسع القدرة والعلم والجود والفضل والرحمة.

الثاني: أنه تعالى لما أمر بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين بيّن أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد، لأن مالك السماوات والأرض كيف يعقل أن يكون محتاجاً إلى عمل الإنسان مع ما هو عليه من الضعف والقصور، بل إنما أمر بها رعاية لما هو الأحسن لهم في دنياهم وأخراهم. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 11 ص 56)

وقال ابن عاشور:

جملة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ معترضة بين الجمل التي قبلها المتضمّنة التحريض على التقوى والإحسان وإصلاح الأعمال من قوله: ﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [النساء: ١٢٨] وقوله: ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾ [النساء: ١٢٩] وبين جملة: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ الآية.

فهذه الجملة تضمّنت تذييلات لتلك الجمل السابقة، وهي مع ذلك تمهيد لما سيذكر بعدها من قوله: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلخ لأنها دليل لوجوب تقوى الله.

والمناسبة بين هذه الجملة والتي سبقتها: وهي جملة: ﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠] أنّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على أن يغني كلّ أحد من سعته.

وهذا تمجيد لله تعالى، وتذكير بأنّه ربّ العالمين، وكناية عن عظيم سلطانه واستحقاقه للتقوى. ا هـ(التحرير والتنوير ج 4 ص 270 - 271)

فصل: قال الآلوسي: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة ولا ولا وفيه من التنبيه على كمال سعته وعظم قدرته ما لا يخفى، والجملة مستأنفة جيء بها على ما قيل لذلك: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي أمرناهم بأبلغ وجه، والمراد بهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم، والكتاب عام للكتب الإلهية، ولا ضرورة تدعو إلى تخصيص الموصول

باليهود والكتاب بالتوراة، بل قد يدعى أن التعميم أولى بالغرض المسوق لـه الكلام وهو تأكيد الأمر بالإخلاص، و: ﴿ مِن ﴾ متعلقة بوصينا أو بأوتوا: ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عطف على الموصول وحكم الضمير المعطوف أن يكون منفصلاً ولم يقدم ليتصل لمراعاة الترتيب الوجودي: ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي وصينا كلاً منهم ومنكم بأن اتقوا الله تعالى على أن: ﴿ وَإِن ﴾ مصدرية بتقدير الجار ومحلها نصب أو جر على المذهبين، ووصلها بالأمر كالنهي وشبهه جائز كما نص عليه سيبويه، ويجوز أن تكون مفسرة للوصية لأن فيها معنى القول. ا هـ(روح المعانى ج 5 ص 163 - 164).

لطيفـــة: قال القرطبى: قال بعض العارفين: هذه الآية هي رَحَى آي القرآن، لأن جميعه يدور عليها. ا هـ(تفسير القرطبى ج 5 ص 408).

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

قال الفخر:

المراد بالآية أن الأمر بتقوى الله شريعة عامة لجميع الأمم لم يلحقها نسخ ولا تبديل، بل هو وصية الله في الأولين والآخرين. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 11 ص 56).

فائدة: قال الفخر: قولـه: ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فيه وجهان:

الأول: أنه متعلق بوصينا، يعني ولقد وصينا من قبلكم الذين أوتوا الكتاب.

والثاني: أنه متعلق بأوتوا، يعني الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وصيناهم بذلك.

وقولـه: ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بالعطف على: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والكتاب اسم للجنس يتناول الكتب السماوية، والمراد اليهود والنصارى. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 11 ص 56).

فصل: قال الفخر: قولـه: ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ كقولك: أمرتك الخير، قال الكسائي: يقال أوصيتك أن أفعل كذا وأن تفعل كذا، ويقال: ألم آمرك أن ائت زيداً، وأن تأتي زيداً، قال تعالى: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ﴾ [النمل: ٩١]. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 11 ص 56).

وقال ابن عاشور:

وجملة: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ عطف على جملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١١٦].

وجُعل الأمر بالتقوى وصيةً: لأنّ الوصية قول فيه أمرٌ بشيء نافع جامع لخير كثير، فلذلك كان الشأن في الوصية إيجاز القول لأنّها يقصد منها وعي السامع، واستحضاره كلمة الوصية في سائر أحواله.

والتقوى تجمع الخيرات، لأنّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تكرّر لفظ في القرآن ما تكرّر لفظ التقوى، يعنون غير الأعلام، كاسم الجلالة.

وفي الحديث عن العرباض بن سارية: وَعَظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله: كأنَّهَا موعظة مُوَدّع فأوْصِنا، قال: **«أوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ والسمع والطاعة»**.

فذكْرُ التقوى في: ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ إلخ تفسير لجملة: ﴿ وَصَّيۡنَا ﴾، فأنْ فيه تفسيرية.

والإخبارْ بأنّ الله أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبل بالتقوى مقصود منه إلْهاب همم المسلمين للتهمّم بتقوى الله لئلاّ تفضلهم الأمم الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإنّ للائتساء أثراً بالغاً في النفوس، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، فالتعريف في الكتاب تعريف الجنس فيصدق بالمتعدّد.

والتقوى المأمور بها هنا منظور فيها إلى أساسها وهو الإيمان بالله ورسله ولذلك قوبلت بجملة: ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

وبيَّن بها عدم حاجته تعالى إلى تقوى الناس، ولكنّها لصلاح أنفسهم، كما قال: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ [الزمر: ٧]. ا هـ(التحرير والتنوير ج 4 ص 271).

لطيفة: قال الثعالبي: وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ الآية: لفظٌ عامٌّ لكل مَنْ أوتيَ كتاباً، فإنَّ وصيَّته سبحانه لعباده لم تَزَلْ منذُ أوجَدَهُمْ.

قال الأستاذ أبو بَكْرٍ الطَّرْطُوشِيُّ في "سِرَاج المُلوكِ": ولما ضَرَبَ ابْنُ مُلْجِمٍ عليًّا

(رضي اللَّه عنه)، أُدْخِلَ منزله، فاعترته غشيةٌ، ثم أفاقَ، فَدَعَا أولادَهُ؛ الحَسَنَ، والحُسَيْنَ، ومحمَّداً، فقال: أوصيكُمْ بتقْوَى اللَّهِ فِي الغَيْبِ والشهادةِ، وكلمةِ الحقِّ في الرضَا والغَضَب، والقَصْدِ في الغنى والفَقْر، والعَدْلِ عَلَى الصديق والعَدُوِّ، والعمل في النشاطِ والكَسَل، والرضا عن اللَّه في الشدَّة والرخَاءِ؛ يا بَنِيَّ، ما شَرٌّ بعْدَهُ الجَنَّةُ بِشَرٍّ، وَلاَ خَيْرٌ بَعْدَهُ النَّارُ بِخَيْرٍ، وكلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ حَقِيرٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عافيةٌ، مَنْ أبْصَرَ عَيْبَ نفسِهِ شُغِلَ عَنْ عَيْبِ غيره، ومَنْ رَضِيَ بقَسْم اللَّهِ لم يَحْزَنْ على ما فاته، ومَنْ سَلَّ سيْفَ بَغْيٍ قُتِلَ به، ومَنْ حَفَر لأخيهِ بِئْراً وقَعَ فيها، ومَنْ هَتَكَ حجابَ أخِيهِ، كَشَفَ اللَّهُ عوراتِ بَنِيهِ، ومَنْ نَسِيَ خطيئته، استعظم خَطِيئَة غَيْره، ومَن استغنى بعقله زَلَّ، وَمَنْ تكبَّر على الناس ذَلَّ، ومَنْ أعْجِبَ برأيه ضَلَّ. ومَنْ جالسَ العلماء وُقِّرَ، ومَنْ خَالَطَ الأنْذَالَ احتقر، ومَنْ دَخَل مَدَاخلَ السُّوء اتهم، ومَنْ مَزَحَ استخف بِهِ، ومَنْ أكْثَرَ مِنْ شيءٍ عُرِفَ به، ومَنْ كثُر كلامه كَثُرَ خَطَؤُهُ، ومن كثر خَطَؤُهُ قل حياؤه، ومن قَلَّ حياؤه قَلَّ ورعُهُ، ومَنْ قَلَّ وَرَعُهُ ماتَ قلبه، ومَنْ مات قلبه دخَلَ النار، يَا بَنِيَّ، الأدَبُ خَيْرُ ميراثٍ، وحُسْنُ الخُلُق خَيْرُ قَرِينٍ، يا بَنِيَّ، العافيةُ عَشَرَةُ أجزاءٍ: تسْعَةٌ منها في الصَّمْتِ إلاَّ عَنْ ذكر اللَّهِ، وواحدٌ في ترك مُجَالسَةِ السُّفَهاء، يَا بَنِيَّ، زينَةُ الفَقْر الصَّبْرُ، وزينَةُ الغِنَى الشُّكْرُ،

يا بَنِيَّ، لا شَرَفَ أعَزُّ من الإسلام، وَلاَ كَرَمَ أعَزُّ من التقوى، يا بَنِيَّ، الحِرْصُ مفتاحُ البَغْيِ، ومطيَّةُ النَّصَبِ، طوبى لمن أخْلصَ للَّه عَمَلَهُ وعِلْمَهُ، وحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وأخْذَهُ وتَرْكَهُ، وكَلاَمَهُ وَصَمْتَهُ، وقوله وفِعْلَهُ. انتهى. ا هـ(الجواهر الحسان ج 1 ص 421 - 422).

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

فصل: قال الفخر: قوله: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ ﴾ عطف على قوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ والمعنى: أمرناهم وأمرناكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض.

وفيه وجهان:

الأول: أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحق كل عاقل

أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه يرجو ثوابه ويخاف عقابه.

والثاني: أنكم إن تكفروا فإن لله ما في سمواته وما في أرضه من أصناف المخلوقات من يعبده ويتقيه، وكان مع ذلك غنياً عن خلقهم وعن عبادتهم، ومستحقاً لأن يحمد لكثرة نعمه، وإن لم يحمده أحد منهم فهو في ذاته محمود سواء حمدوه أو لم يحمدوه. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 11 ص 56).

وقال الآلوسى:

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عطف على: ﴿ وَصَّيْنَا ﴾ بتقدير قلنا أي وصينا وقلنا لكم ولهم إن تكفروا فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت لا يضره كفركم ومعاصيكم، كما أنه لا ينفعه شكركم وتقواكم وإنما وصاكم وإياهم لرحمته لا لحاجته وفي الكلام تغليب للمخاطبين على الغائبين، ويشعر ظاهر كلام البعض أن العطف على: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وتعقب بأن الشرطية لا تقع بعد أن المصدرية، أو المفسرة فلا يصح عطفها على الواقع بعدها سواء كان إنشاءاً أم إخباراً، والفعل: ﴿ وَصَّيْنَا ﴾ أو أمرنا أو غيره، وقيل: إن العطف المذكور من باب:

علفتها تبناً وماءاً بارداً ::: .....

وجوز أبو حيان أن تكون جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وحدها، أو مع الذين أوتوا الكتاب: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا ﴾ بالغنى الذاتي عن الخلق وعبادتهم: ﴿ حَمِيدًا ﴾ أي محموداً في ذاته حمدوه أم لم يحمدوه، والجملة تذييل مقرر لما قبله، وقيل: إن قوله سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلخ تهديد على الكفر أي أنه تعالى قادر على عقوبتكم بما يشاء، ولا منجى عن عقوبته فإن جميع ما في السموات والأرض له، وقوله عز وجل: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ للإشارة إلى أنه جل وعلا لا يتضرر بكفرهم ا هـ(روح المعانى ج 5 ص 164).

من فوائد السعدى فى الآية: قال رحمه الله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين

أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب، ولهذا قال: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ ﴾ بأن تتركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئا ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي في جميع أحوالهم وشئونهم إليه وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النِّعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين: ﴿ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر. ا هـ (تفسير السعدى ص 207 - 208).

فصل: قال الطبرى: فى معنى الآية: يعني بذلك جل ثناؤه: ولله جميع مُلْك ما حوته السموات السبع والأرَضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب

قولـه: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ تنبيهًا منه خلقَه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوَحْشة بفراق سَكنه وزوجته وتذكيرًا منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذّر عليه أن يغنيَه وكلَّ ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كلَّ ذي وحشة.

ثم رجع جل ثناؤه إلى عذل من سعى في أمر بني أبيرق وتوبيخهم، ووعيدِ من فعل ما فعل المرتدّ منهم، فقال: "ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم"، يقول: ولقد أمرنا أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل "وإياكم"، يقول: وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: "اتقوا الله"، يقول: احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه "وإن تكفروا"، يقول: وإن تجحدوا وصيته إياكم، أيها المؤمنون، فتخالفوها

"فإنّ لله ما في السموات وما في الأرض"، يقول: فإنكم لا تضرُّون بخلافكم وصيته غير أنفسكم، ولا تَعْدُون في كفركم ذلك أن تكونوا أمثالَ اليهود والنصارى، في نزول عقوبته بكم، وحلول غضبه عليكم، كما حلَّ بهم إذ بدَّلوا عهده ونقضوا ميثاقه، فغيَّر بهم ما كانوا فيه من خَفض العيش وأمن السِّرب، وجعل منهم القردة والخنازير. وذلك أن له ملك جميع ما حوته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شيء أراده بجميعه وبشيء منه، من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله، وغير ذلك من الأمور كلها، لأن الخلق خلقه، بهم إليه الفاقة والحاجة، وبه قواهم وبقاؤهم، وهلاكهم وفناؤهم وهو"الغني" الذي لا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إليكم، أيها الناس، ولا إلى غيركم "والحميدُ" الذي استوجب عليكم أيها الخلق الحمدَ بصنائعه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم. فاستديموا ذلك، أيها الناس، باتقائه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه. ا هـ(تفسير الطبرى ج 9 ص 295 - 296).

فوائد لغوية: قال ابن عادل: قولـه: " مِنْ قَبْلِكُم " فيه وجهان:

الأول: أنه مُتَعَلّق بـ " وصَّيْنَا " يعني: ولقد وصَّيْنَا من قَبْلكُم الذين أُوتُوا الكتاب.

والثاني: أنه متعلّق بـ " أوتُوا " يَعْني: الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ، وصيناهم بذلك، والأوَّل أظْهَر.

قولـه: " وإيَّاكم ": عَطْف على: ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو واجبُ الفَصْل هُنَا؛ لتعذُّر

الاتِّصَال، واستدلَّ بَعْضُهم على أنَّه إذا قُدِر عَلى الضمير المُتَّصِل يجُوز أن يُعْدَلَ إلى المُنْفَصِل بهذه الآية؛ لأنه كان يُمْكِنُ أن يُقَال: " ولقد وَصَّيْنَاكُم والَّذِين أوتُوا الكِتاب "، وكذلك استُدِلَّ بقوله - تعالى -: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١]، إذ يمكن أن يُقَالَ: يخرجُونَكُم والرَّسُولَ، وهذا ليس يدلّ له:

أمَّا الآيةُ الأولى: فلأنَّ الكَلامَ فيها جَاءَ على التَّرتِيب الوُجُودِي، فإنَّ وَصِيَّة مَنْ قبلنا قبلَ وَصيَّتنا، فلمَّا قَصَدَ هذا المَعْنَى، استحال - والحالةُ هذه - أن يقْدِرَ عليه مُتَّصِلاً.

وأما الآية الثَّانية: فلأنَّه قصد فيها تَقَدُّمَ ذِكْر الرَّسُول؛ تشريفاً له، وتشنيعاً على مَنْ تَجاسَر على مِثْل ذلك الفِعْل الفَظِيع، فاسْتَحَال - والحالة هذه - أن يُجَاء به مُتَّصِلاً، و" مِنْ قبلكم ": يَجُوزُ أنْ يتعلَّق بـ " أوتُوا "، ويجُوز أنْ يتعلَّق بـ " وَصَّيْنَا "؛ والأولُ أظهرُ.

قوله: " أن اتَّقُوا " يجوزُ في " أن " وَجْهَان:

أحدُهُمَا: أن تكون مصدريّة على حَذْفِ حَرْفِ الخَفْض، تقديرُه: بأن اتَّقوا، فلما حُذِف الحَرْفُ جَرَى فيها الخِلافُ المَشْهُور.

والثاني: أن تكُون المُفَسِّرة؛ لأنها بَعْد ما هُو بِمَعْنَى القَوْل، لا حروفه وهو الوصيّة، والظاهر أن قوله: " وإن تَكْفُرُوا " جملة مُسْتأنفة؛ للإخبار بأن هذه الحَال ليست داخلة في مَعْمُول الوصيّة.

وقال الزَّمَخْشَرِي:

﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ ﴾ عطفٌ على " اتَّقُوا " لأنَّ المَعْنَى: أمرناهم، وأمَرْنَاكم بالتَّقْوَى، وقُلنا لهم ولكم: " إن تَكْفُرُوا " وفي كلامه نظرٌ، لأنَّ تقديره القَوْلَ، ينفي كون الجُمْلة الشرطية مُنْدرجةً في حَيِّز الوصيَّة بالنِّسْبَة إلى الصِّناعة النَّحْوية، وهو لم يقصد تفسير المعنى فقط، بل قصده هو وتفسير الإعراب؛ بدليل قوله: عطف على " اتَّقُوا "، و" اتَّقُوا " داخلٌ في حيِّز الوصيَّةِ، سواءً أجعلت " أن " مصدريَّةً أم مُفسِّرة.

قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ﴾ في تعلُّقِه وجهان:

الأول: أنه - تعالى - خالقُهُم ومالِكُهُم، والمُنْعِم عليهم بأصْناف النِّعَم كلِّها، فَحَقَّ على كل عَاقلٍ أن يَنْقَاد لأوَامِره ونَوَاهِيهِ، ويَرْجُو ثوابه، ويَخَاف عِقَابَهُ.

والثاني: ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من أصناف المَخْلُوقات من الملائِكَة وغيرها أطوع مِنْكُم يَعْبُدوه ويتَّقُوه، وهو مع ذَلِكَ غَنِيٌّ عن عِبَادَتِهم، و" حَمِيداً " مُسْتَحِقٌّ للحَمْد؛ لكثرة نِعمِه، وإن لم يحمده أحَدٌ منهم؛ لأنه في ذاتِه مَحْمُود، سواء حَمَدُوه أوْ لَمْ يَحْمَدُوه. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 7 ص 59 - 61). بتصرف يسير.

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية: قال عليه الرحمة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

كلَّف الكافة بالرجوع إليه، ومجانبة مَنْ سِواه، والوقوف على أمره، ولكن فريقاً وُفِّق وَفَريقًا خُذِل. ثم عَرَّفَ أهلَ التحقيق أنه غَنِيٌّ عن طاعة كلِّ ولِيٍّ، وبريء عن زلة كل غويٍّ. ا هـ(لطائف الإشارات ج 1 ص 371).

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾ [النساء: ١٣٢].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعى: ولما كان الملك قد لا يمنع الاعتراض على المالك بين أن ذلك إنما هو في الملك الناقص وأنه ملكه تام: ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ أي الذي له العلم الكامل والقدرة الشاملة: ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وأكد لمثل ما مضى فقال: ﴿ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي هو قائم بمصالح ذلك كله، يستقل بجميع أمره، لا معترض عليه، بل هما وكل من فيهما مظهر العجز عن أمره، معلق مقاليد نفسه وأحواله إليه طوعاً أو كرهاً، فهو وكيل على كل ذلك فاعل به ما يفعل الوكيل من الأخذ والقبض والبسط، ولمثل ذلك كرر الاسم الأعظم فقال: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه: ﴿ وَكِيلًا ﴾ أي قائماً بالمصالح قاهراً متفرداً بجميع الأمور، قادراً على جميع المقدور، وقد بان - كما ترى - أن جملة " لله " المكررة ثلاث مرات ذكرت كل مرة دليلاً على شيء غير الذي قبله وكررت، لأن الدليل الواحد إذا كان دالاً على مدلولات كثيرة يحسن أن يستدل به على كل واحد منها.

وإعادته مع كل واحد أولى من الاكتفاء بذكره مرة واحدة، لأن عند إعادته يحضر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فيكون العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجل؛ وفي ختم كل جملة بصفة من الصفات الحسنى تنبيه الذهن بها إلى أن هذا الدليل دال على

أسرار شريفة ومطالب جليلة لا تنحصر، فيجتهد السامع في التفكر لإظهار الأسرار والاستدلال على صفات الكمال لأن الغرض الكلي من هذا الكتاب صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله تعالى إلى الاستغراق في معرفته سبحانه، وهذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده، فكان في غاية الحسن والكمال. ا هـ(نظم الدرر ج 2 ص 331 - 332).

فصل: قال الآلوسى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يحتمل أن يكون كلاماً مبتدأ مسوقاً للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية أي له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقاً وملكاً يتصرف في ذلك كيفما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءاً وإماتة، ويحتمل أن يكون كالتكميل للتذييل ببيان الدليل فإن جميع المخلوقات تدل لحاجتها وفقرها الذاتي على غناه وبما أفاض سبحانه عليها من الوجود والخصائص والكمالات على كونه حميداً: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ تذييل لما قبله، والوكيل هو القيم والكفيل بالأمر الذي يوكل إليه، وهذا على الإطلاق هو الله تعالى، وفي "النهاية" يقال: "وكَّل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة (بكفايته) أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه، والوكيل في أسماء الله تعالى هو القيم (الكفيل) بأرزاق العباد، وحقيقته أنه يستقل (بالأمر) الموكول إليه"، ولا يخفى أن الاقتصار على الأرزاق قصور فعمم، وتوكل على الله تعالى، وادعى البيضاوي بيض الله تعالى غرة أحواله أن هذه الجملة راجعة إلى قوله سبحانه: ﴿ يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠] فإنه إذا توكلت وفوضت فهو الغني لأن من توكل على الله عز وجل كفاه، ولما كان ما بينهما تقريراً له لم يعد فاصلاً، ولا يخفى أن على بعده لا حاجة إليه. ا هـ(روح المعانى ج 5 ص 164).

سؤال: فإن قيل: ما الفائدة في تكرير قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ؟

قلنا: إنه تعالى ذكر هذه الكلمات في هذه الآية ثلاث مرات لتقرير ثلاثة أمور: فأولها: أنه تعالى قال: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠] والمراد منه كونه تعالى جواداً متفضلاً، فذكر عقيبه قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ والغرض تقرير كونه واسع الجود والكرم، وثانيها: قال: ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ والمراد منه أنه تعالى منزّه عن طاعات المطيعين وعن ذنوب

المذنبين، فلا يزداد جلاله بالطاعات، ولا ينقص بالمعاصي والسيئات، فذكر عقيبه قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ والغرض منه تقرير كونه غنياً لذاته عن الكل، وثالثها: قال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣ ﴾ والمراد منه أنه تعالى قادر على الإفناء والإيجاد، فإن عصيتموه فهو قادر على إعدامكم وإفنائكم بالكلية، وعلى أن يوجد قوماً آخرين يشتغلون بعبوديته وتعظيمه، فالغرض ههنا تقدير كونه سبحانه وتعالى قادراً على جميع المقدورات، وإذا كان الدليل الواحد دليلاً على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به على الثاني، ثم يذكره ثالثاً ليستدل به على المدلول الثالث، وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة، لأن عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فكان العلم الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى، فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن والكمال.

وأيضاً فإذا أعدته ثلاث مرات وفرعت عليه في كل مرة إثبات صفة أخرى من صفات جلال الله تنبه الذهن حينئذٍ لكون تخليق السموات والأرض دالاً على أسرار شريفة ومطالب جليلة، فعند ذلك يجتهد الإنسان في التفكر فيها والاستدلال بأحوالها وصفاتها على صفات الخالق سبحانه وتعالى، ولما كان الغرض الكلي من هذا الكتاب الكريم صرف العقول والأفهام عن الاشتغال بغير الله إلى الاستغراق في معرفة الله، وكان هذا التكرير مما يفيد حصول هذا المطلوب ويؤكده، لا جرم كان في غاية الحسن والكمال. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 11 ص 56 - 57).

وقال القرطبي:

إن قال قائل: ما فائدة هذا التكرير؟ فعنه جوابان: أحدهما أنه كرر تأكيداً؛ ليتنبه العباد وينظروا ما في ملكوته وملكه وأنه غني عن العالمين.

الجواب الثاني أنه كرر لفوائد: فأخبر في الأوّل أن الله تعالى يغني كلا من سعته، لأن له ما في السموات وما في الأرض فلا تنفذ خزائنه. ا هـ(تفسير القرطبي ج 5 ص 409).

وقال الخازن:

فإن قلت ما الفائدة في تكرير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قلت الفائدة في ذلك أن لكل آية معنى تخص به، أما الآية الأولى فمعناها فإن لله ما في السموات وما في الأرض وهو يوصيكم بتقوى الله فاقبلوا وصيته وقيل لما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠] بيّن أن له ما في السموات وما في الأرض وأنه قادر على إغناء جميع الخلائق وهو المستغني عنهم.

وأما الآية الثانية فإنه تعالى قال: ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ والمراد أنه تعالى منزه عن طاعات الطائعين وعن ذنوب المذنبين وأنه لا يزداد جلاله بالطاعات ولا ينقص بالمعاصي.

وقيل لما بين أن له ما في السموات وما في الأرض وقال بعد ذلك: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ﴾ فالمراد منه أنه تعالى هو الغني وله الملك فاطلبوا منه ما تطلبون فهو يعطيكم لأن له ما في السموات وما في الأرض.

وأما الثالثة فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ ﴾ أي فتوكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره فإنه المالك لما في السموات والأرض.

وقيل تكريرها تعديدها لما هو موجب تقواه لتتقوه وتطيعوه ولا تعصوه لأن التقوى والخشية أصل كل خير. ا هـ(تفسير الخازن ج 1 ص 405)

وقال أبو حيان:

وقال الراغب: **الأول**: للتسلية عما فات.

والثاني: أنّ وصيته لرحمته لا لحاجة، وأنهم إن كفروه لا يضروه شيئاً.

والثالث: دلالته على كونه غنياً.

وقال مكي: نبهنا أولاً على ملكه وسعته.

وثانياً على حاجتنا إليه وغناه، وثالثاً على حفظه لنا وعلمه بتدبيرنا. ا هـ(البحر المحيط ج 3 ص 383). بتصرف يسير.

وقال ابن عاشور:

قد تكرّرت جملة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ هنا ثلاث مرّات متتاليات متّحدة لفظاً ومعنى أصلياً، ومختلفة الأغراض الكنائية المقصودة منها، وسبقتها جملة نظيرتهنّ: وهي ما تقدّم من قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ١٢٦ ﴾ [النساء: ١٢٦].

فحصل تكرارها أربع مرات في كلام متناسق.

فأمّا الأولى السابقة فهي واقعة موقع التعليل لجملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦]، ولقوله: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، والتذييل لهما، والاحتراس لجملة: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٥]، كما ذكرناه آنفاً.

وأما الثانية التي بعدها فواقعة موقع التعليل لجملة: ﴿ يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾.

وأما الثالثة التي تليها فهي علّة للجواب المحذوف، وهو جواب قوله: ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ ﴾؛ فالتقدير: وإن تكفروا فإنّ الله غنيّ عن تقواكم وإيمانكم فإنّ له ما في السماوات وما في الأرض وكان ولا يزال غنيّاً حميداً.

وأمّا الرابعة التي تليها فعاطفة على مقدّر معطوف على جواب الشرط تقديره: وإن تكفروا بالله وبرسوله فإنّ الله وكيل عليكم ووكيل عن رسوله وكفى بالله وكيلاً. ا هـ(التحرير والتنوير ج 4 ص 272).

وقال فى ملاك التأويل:

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٣٢ ﴾ [النساء: ١٣٠ - ١٣٢].

للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما أعقبت به هذه الآى الثلاث من أوصافه العلية سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ وفى الثانية: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ﴾ وفى الثالثة: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ يسأل عن ذلك وعن تكرار إخباره تعالى وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ثلاث مرات مع تقارب الكلام واتصاله.

والجواب عن **الأول**: إنه لما قال سبحانه فى الزوجين عند عدم انقيادهما لحسن المعاشرة: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ قال الزمخشرى: "يرزقه زوجا خيرا من زوجته وعيشا أهنأ من عيشه " ولما قال: ﴿ يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ناسب هذا ذكر ما يقتضى من صفاته عموم وجوه الإحسان وأنه لا نفاد لما عنده مما به قوام عيشهم وكمال حال كل واحد منهم من الرزق والسكن والتأنيس وأنه سبحانه المنفرد بعلم وجه الحكمة فى تآلفهم فقال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ أى كثير العطاء جم الإحسان عليم بخفيات مصالح العباد فقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ عقب ما تقدمه من قوله: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ أوضح شئ فى المناسبة ثم اتبع بما يلائم ذلك ويزيده وضوحاً من إخباره تعالى من أن السماوات والأرض وما فيهما ملكه تعالى فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثم أتبع سبحانه أنه بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدم من المخاطبين بكتبه المنزلة رحمة لعباده وإحسانه كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب والمهيمن من على هذه الخطاب فقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وأعلم سبحانه أنه محسن إليهم لأن تقواهم إياه تعالى مثمرة لهم السلامة من عذابه والنجاة من أليم عقابه وأنه ليس به إلى تقواهم من حاجة ولا يعود إليه سبحانه من كل ذلك منفعة إذ هو الغنى عنهم وعن عبادتهم فقال: ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو الغنى عنكم وعن عبادتكم كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨] وقال تعالى: ﴿ فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦] وإذا كان الكل ممن فى السماوات والأرض ملكاً له سبحانه وتحت قهره وفى قبضته يفعل فيهم ما يشاء ولا يكون منهم إلا ما يشاؤه ويريده وهو الغنى الحميد ثم أكده بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لما بنى عليه من قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى حافظاً لجميع ذلك منفرداً بتدبيره وإمساك السماوات والأرض ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده فختام الآية بهذه الصفة من أنسب شئ وأبينه والله أعلم. ا هـ(ملاك التأويل ص 110 - 111).

وقال الطبرى:

فإن قال قائل: وما وجه تكرار قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في

آيتين، إحداهما في إثر الأخرى؟

قيل: كرّر ذلك، لاختلاف معنى الخبرين عما في السموات والأرض في الآيتين. وذلك أن الخبر عنه في إحدى الآيتين: ذكرُ حاجته إلى بارئه، وغنى بارئه عنه - وفي الأخرى: حفظ بارئه إياه، وعلمه به وتدبيره.

فإن قال: أفلا قيل: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾، وكفى بالله وكيلا؟

قيل: إن الذي في الآية التي قال فيها: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾، مما صلح أن يختم ما ختم به من وصف الله بالغنى وأنه محمود، ولم يذكر فيها ما يصلح أن يختم بوصفه معه بالحفظ والتدبير. فلذلك كرّر قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. ا هـ(تفسير الطبرى ج 9 ص 297).

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية: قال عليه الرحمة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾.

قَطَعَ الأسرار عن التَّعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفراده بمُلْكِ ما في السموات والأرض، ثم أطمعهم في حسن تولّيه، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك. ا هـ(لطائف الإشارات ج 1 ص 371).

المتقون كما ورد ذكرهم فى سورة البقرة

سؤال: فإن قلت: فلم قال " هدى للمتقين " والمتقون مهتدون؟

قلت: هو قولك للعزيز المكرم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيه واستدامته كقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ ووجه آخر وهو أنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين كقول رسول الله ﷺ : **«من قتل قتيلاً فله سلبه»** وعن ابن عباس: **«إن أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض وتضل الضالة وتكون الحاجة»**.

فسمي المشارف للقتل والمرض والضلال، قتيلاً ومريضاً وضالاً ومنه قوله تعالي:

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧] أي صائراً إلى الفجور والكفر [1] اهـ.

وأجاب صاحب الأمثل عن هذا السؤال قائلا:

واضح أن القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلماذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟

السبب هو أن الإنسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية ودعوة الأنبياء، مالم يصل إلى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

وبعبارة أخرى: الأفراد الفاقدون للإيمان على قسمين:

قسم يبحث عن الحق، ويحمل مقداراً من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق أنّى وجده.

وقسم لجوج متعصب قد استفحلت فيه الأهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى في إطفاء نوره حيثما وجده.

ومن المسلم به أن أفراد القسم الأول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أيّ كتاب سماوي آخر، أما القسم الثاني فلا حظّ لهم في ذلك. اهـ الأمثل فى تفسير الكتاب المنزل للشيرازى حـ1 صـ96.

سؤال فإن قيل لم حذف المعمول فلم يقل: " هدى للمصلحة الفلانية ولا للشيء الفلاني؟

فالجواب: لإرادة العموم، وانه هدى لجميع مصالح الدارين[2]اهـ.

سؤال: فإن قلت: فهلا قيل: هدى للضالين:

قلت: لأن الضالين فريقان فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع علي قلوبهم وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريقين الباقيين على الضلالة فبقي أن يكون هدى لهؤلاء وأيضاً فقد جعل ذلك سلماً إلى تصدير السورة التي هي أول

(1) الكشاف ح1 - ص 44 - 45.
(2) تفسير السعدي - ص34.

الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده[1]. اهـ

وقال السعدي [2] - رحمه الله -: " وقال في موضع آخر: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فعم وفي هذا الموضع وغيره ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنه في نفسه هدي لجميع الخلق فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة ولم ينتفعوا به لشقائهم وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوي التي حقيقتها اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فاهتدوا به وانتفعوا غاية الانتفاع قال تعالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩] فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية ولأن الهداية نوعان: هداية البيان وهداية التوفيق فالمتقون حصلت لهم الهدايتان وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة. اهـ

سؤال: فإن قيل: فيه بيان لجميع الناس فكيف أضاف إلى المتقين خاصة؟

والجواب: لأن المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان ويعملون به. اهـ

وقال البغوي حـ1 صـ59، وتخصيص المتقين بالذكر تشريف لهم أو لأنهم المنتفون بالهدي اهـ.

وقال أبو السعود[3]:﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي المتصفين بالتقوى حالاً أو مآلا وتخصيص الهدي بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره المنتفعون بآثاره. اهـ

وقيل: إنما صاروا مهتدين بما استفادوا به من الهدي أو إنه ثبات لهم على الهدي وزيادة فيه أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه كقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النازعات: ٤٥] أو أراد الفريقين واقتصر على أحدهما كقوله تعالي: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ [النحل: ٨١] أي والبرد[4]. اهـ

فائدة: في معاني التقوى في القرآن: جاءت التقوى في القرآن والغرض منها الإيمان

(1) الكشاف حـ1 - صـ45 باختصار يسير.
(2) تفسير السعدي صـ34.
(3) تفسير أبو السعود حـ1 - صـ27.
(4) تفسير الرازي صـ21.

تارة والتوبة تارة أخرى والطاعة ثالثة وترك المعصية رابعاً والإخلاص خامساً.

أما الإيمان: فقوله تعالي: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦] أي التوحيد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣] وأما التوبة فقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي تابوا.

وأما الطاعة فقوله في النحل: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] وأيضاً: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥٢].

وأما ترك المعصية فقوله في الحج: ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢] أي من إخلاص القلوب، هكذا قوله: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤١] اهـ.

لطائف في التقوى:

قال الحسن: التقوى أن لا تختار على الله سوى الله، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله وقال إبراهيم بن أدهم: التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً ولا في الملائكة في أفعالك عيباً ولا ملك العرش في سرك عيباً.

ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلا في قوله تعالي: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ كفاه لأنه تعالي بين أن القرآن هدي للناس في قوله تعالي: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثم قال ها هنا في القرآن: هدي للمتقين فهذا يدل على أن المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كأنه ليس بإنسان [1] اهـ.

الفرق بين التقوى والورع:

التقوى أخذ عدة والورع دفع شبهة فالتقوى محققة السبب والورع مظنون السبب. اهـ.

فصل في التقوى والبواعث عليها ودرجاتهاوفضائلها المستنبطة من القرآن:

وهي خمس عشرة: الهدي كقوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والفطرة لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل: ١٢٨] والولاية لقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٩] والمحبة لقوله: ﴿

(1) التفسير الكبير ج - ص268 - بتصرف يسير.

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧] والمغفرة لقوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] والمخرج من الغم والرزق من حيث لا تحتسب لقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] وتيسير الأمور: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] وغفران الذنوب وإعظام الأجور لقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥] وتقبل الأعمال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] والفلاح لقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] والبشرى لقوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] ودخول الجنة لقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القلم: ٣٤] والنجاة من النار لقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [مريم: ٧٢].

البواعث على التقوى عشرة: خوف العقاب الأخروي. وخوف العقاب الدنيوي، رجاء الثواب الدنيوي، رجاء الثواب الأخروي، خوف الحساب، الحياء من نظر الله، وهو مقام المراقبة، الشكر على نعمه بطاعته، والعلم لقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] وتعظيم جلال الله، وهو مقام الهيبة، وصدق المحبة لقول القائل: -

تعصى الإله وأنت تظهر حبه لو كان ::: هذا لعمري في القياس بديع إن المحب لمن
حبك صادقاً لأطعته ::: يحب مطيع

ولله در القائل:

قالت وقد سألت عن حال عاشقها فقلت ::: لله صفة ولا تنقص ولا تزد وقلت قف
لو كان يظن الموت من ظمإ ::: ورود الماء لم يرد

* درجات التقوى خمس: أن يتقي العبد الكفر، وذلك مقام الإسلام، وأن يتقي المعاصي، والحرمات، وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات، وهو مقام الورع، وأن يتقي المباحات وهو مقام الزهد وأن يتقي حضور غير الله على قلبه وهو مقام المشاهدة [1]. اهـ.

وقال أبو السعود:

والمتقي اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة والتقوى في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة قال عليه السلام جماع التقوى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠] الآية وعن عمر بن عبد

(1) التسهيل حـ1 - ص35، 36.

العزيز أنه ترك ما حرم الله وأداء ما فرض الله وعن شهر بن حوشب المتقي من يترك مالا بأس به حذراً من الوقوع فيما فيه بأس وعن أبي يزيد أن التقوى هي التورع عن كل ما فيه شبهة وعن محمد بن حنيف أنه مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالي وعن سهل المتقي كل من تبرأ عن حوله وقدرته وقيل التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك وعن ميمون بن مهران لا يكون الرجل تقياً حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر وعن أبي تراب بين يدي التقوى خمس عقبات لا يناله من يجاوزهن إيثار الشدة على النعمة وإيثار الضعف على القوة وإيثار الذل على العزة، وإيثار الجهد على الراحة وإيثار الموت على الحياة وعن بعض الحكماء أنه لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلا أن يكون بحيث لو جعل ما في قلبه في طبق فطيف به في السوق لم يستح ممن ينظر إليه وقيل التقوى أن نزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب: الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبروء عن الكفر وعليه قوله تعالي: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح: ٢٦] والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى السائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوى في الشرع وهو المعنى بقوله تعالي:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، المأمورية في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية المبنية على الحكم الأبية أقصاها ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم السلام حيث جمعوا بذلك بين رياستي النبوة والولاية وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكيةالمؤيدة بالقوة القدسية وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين [1]. اهـ

ومن لطائف قوله: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾.

ما نقله السيوطي - رحمه الله - في الدر المنثور بقوله:

" كتب رجل إلى عبد الله بن الزبير بموعظة أما بعد؛ فإن لأهل التقوى علامات

(1) تفسير أبي السعود ح1 - ص27، 28.

يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم من صبر على البلاء، ورضى بالقضاء، وشكر على النعماء وذل لحكم القرآن.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن المبارك قال: قال داود لابنه سليمان - عليهما السلام -: "يا بني إنما يستدل على تقوى الرجل بثلاث أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاته، وأخرج ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال: "القيامة عرس المتقين " (1). اهـ

قولـه تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٣].

قال فى زاد المسير حـ1ص25 ما نصه:

الصلاة في اللغة الدعاء وفي الشريعة أفعال وأقوال على صفات مخصوصة وفي تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها سميت بذلك لرفع الصلا وهو مغرز الذنب من الفرس

والثاني: أنها من صليت العود إذا لينته فالمصلي يلين ويخشع

والثالث: أنها مبنية على السؤال والدعاء والصلاة في اللغة الدعاء وهي في هذا المكان اسم جنس.

قال مقاتل أراد بها هاهنا الصلوات الخمس

وفي معنى إقامتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به روي عن ابن عباس ومجاهد

والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها قاله قتادة ومقاتل

والثالث: إدامتها والعرب تقول في الشيء الراتب قائم وفلان يقيم أرزاق الجند قاله ابن كيسان انتهى كلامه رحمه الله.

"**موعظة**": اعلموا - إخواني - أن الله عز وجل قد قدر الصلوات وقدمها على غيرها من العبادات وإنما يحافظ عليها من يعرف قدرها ويرجو أجرها ويخاف العقاب على

(1) الدر المنثور ح1 - ص62.

تركها وهذه صفة المؤمن وإنما يتوانى عنها ناقص الإيمان إن تكاسل وكافر إن تهاون

قد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: **«بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»**.

وروى في صحيحه أن النبي ﷺ قال: **«عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة»**.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: **«جعلت قرة عيني في الصلاة»**.

وقد كان لله عز وجل عباد يحبون خدمته لشدة محبتهم إياه فيحضرون في الصلاة قلوبهم ويجمعون لأدائها هممهم.

وروى عن ابن الزبير أنه كان إذ قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزعاً أو حائطاً أو وجه حجر أو رحل فدقه وهو في الصلاة فذهبت ببعض ثوبه فما التفت وكان إذا دخل بيته سكت أهل البيت فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا.

واعلموا - إخواني - أن من أحب المخدوم أحب الخدمة له لو عرف العبد من يناجي لم يقبل على غيره والصلاة صلة بين العبد وبين ربه.

الستر الأول: الأذان كالإذن في الدخول

وستر التقريب الإقامة: فإذا كشف ذلك الغطاء لاح للمتقي قرة العين فدخل في دائرة دار المناجاة أرحنا بها يا بلال فقد جعلت قرة عيني في الصلاة اكشف يا بلال ستر التقريب عن الحبيب.

يا بطال: لو سافرت بلداً لم تربح فيه حزنت على فوات ربحك وضياع وقتك أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرة العين ثم خرج بغير فائدة.

يصلي فيرسلها كالطيور يقوم ويقعد ::: إذا أرسلت من حصار القفص كمثل مستعجلاً
::: الطروب إذا ما رقص

إخواني: لا تقنعوا بالحركات فإن الله لا ينظر إلى صوركم.

يا هذا: إنما يصاد الطائر بمحبوبه من الحب ومحبوب القلب الطاهر ذكر الله عز

وجل فحرام على قلبك الحائم حول جيف الهوى ألق لـه حب الذكر على فخ الصدق في حديقة الصور لعله يقع في شبكة المعرفة انتهى الياقوتة لابن الجوزى حـ1ص133. من لطائف الإمام الفخرالرازى - رحمه الله - (الصلاة معراج العارفين).

من لطائف الإمام الفخر الرازى اعلم أنه كان لرسول الله ﷺ معراجان: أحدهما من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والآخر من الأقصى إلى أعالي ملكوت الله تعالى فهذا ما يتعلق بالظاهر وأما ما يتعلق بعالم الأرواح فله معراجان: **أحدهما**: من عالم الشهادة إلى عالم الغيب. **والثاني**: من عالم الغيب إلى عالم غيب الغيب وهما بمنزلة قاب قوسين متلاصقين فتخطاهما محمد عليه السلام وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ ﴾ [النجم: ٩] وقوله أو أدنى إشارة إلى فنائه في نفسه أما الانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فاعلم أن كل ما يتعلق بالجسم والجسمانيات فهو من عالم الشهادة لأنك تشاهد هذه الأشياء ببصرك فانتقال الروح من عالم الأجساد إلى عالم الأرواح هو السفر من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وأما عالم الأرواح فعالم لا نهاية له وذلك لأن آخر مراتب الأرواح هو الأرواح البشرية ثم تترقى في معارج الكمالات ومصاعد السعادات حتى تصل إلى الأرواح المتعلقة بسماء الدنيا ثم تصير أعلى وهي أرواح السماء الثانية وهكذا حتى تصل إلى الأرواح الذين هم سكان درجات الكرسي وهي أيضاً متفاوتة في الاستعلاء ثم تصير أعلى وهم الملائكة المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ [الزمر: ٧٥] ثم تصير أعلى وأعظم وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧] وفي عدد الثمانية أسرار لا يجوز ذكرها ههنا ثم تترقى فتنتهي إلى الأرواح المقدسة عن التعلقات بالأجسام وهم الذين طعامهم ذكر الله وشرابهم محبة الله وأنسهم بالثناء على الله ولذتهم في خدمة الله وإليهم الإشارة بقوله: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وبقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ثم لهم أيضا درجات متفاوتة ومراتب متباعدة والعقول البشرية قاصرة عن الإحاطة بأحوالها والوقوف على شرح صفاتها ولا يزال هذا الترقي والتصاعد حاصلاً كما قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] إلى أن ينتهي الأمر إلى نور الأنوار ومسبب الأسباب ومبدأ الكل وينبوع الرحمة ومبدأ الخير وهو الله تعالى فثبت أن عالم الأرواح هو عالم الغيب

وحضرة جلال الربوبية هي غيب الغيب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام إن لله سبعين حجاباً من النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك البصر وتقدير عدد تلك الحجب بالسبعين مما لا يعرف إلا بنور النبوة. فقد ظهر بما ذكرنا أن المعراج على قسمين: أولهما: المعراج من عالم الشهادة إلى عالم الغيب والثاني: المعراج من عالم الغيب إلى عالم غيب الغيب وهذه كلمات برهانية يقينية حقيقية. إذا عرفت هذا فلنرجع إلى المقصود فنقول: إن محمداً عليه السلام لما وصل إلى المعراج وأراد أن يرجع قال: يا رب العزة إن المسافر إذا أراد أن يعود إلى وطنه احتاج إلى محمولات يتحف بها أصحابه وأحبابه فقيل له: إن تحفة أمتك الصلاة وذلك لأنها جامعة بين المعراج الجسماني وبين المعراج الروحاني: أما الجسماني فبالأفعال وأما الروحاني فبالأذكار فإذا أردت أيها العبد الشروع في هذا المعراج فتطهر أولا لأن المقام مقام القدس فليكن ثوبك طاهراً وبدنك طاهراً لأنك بالوادي المقدس طوى وأيضاً فعندك ملك وشيطان فانظر أيهما تصاحب؛ ودين ودنيا فانظر أيهما تصاحب؛ وعقل وهوى فانظر أيهما تصاحب؛ وخير وشر وصدق وكذب وحق وباطل وحلم وطيش وقناعة وحرص؛ وكذا القول في كل الأخلاق المتاضدة والصفات المتنافية فانظر أنك تصاحب أي الطرفين وتوافق أي الجانبين فإنه إذا استحكمت المرافقة تعذرت المفارقة ألا ترى أن الصديق اختار صحبة محمد عليه السلام فلزمه في الدنيا وفي القبر وفي القيامة وفي الجنة وأن كلباً صحب أصحاب الكهف فلزمهم في الدنيا وفي الآخرة ولهذا السر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩] ثم إذا تطهرت فارفع يديك وذلك الرفع إشارة إلى توديع عالم الدنيا وعالم الآخرة فاقطع نظرك عنهما بالكلية ووجه قلبك وروحك وسرك وعقلك وفهمك وذكرك وفكرك إلى الله ثم قل: الله أكبر والمعنى أنه أكبر من كل الموجودات وأعلى وأعظم وأعز من كل المعلومات بل هو أكبر من أن يقاس إليه شيء أو يقال إنه أكبر ثم قل: سبحانك اللهم وبحمدك وفي هذا المقام تجلى لك نور سبحات الجلال ثم ترقيت من التسبيح إلى التحميد ثم قل: تبارك اسمك وفي هذا المقام انكشف لك نور الأزل والأبد لأن قوله تبارك إشارة إلى الدوام المنزه عن الإفناء والإعدام وذلك يتعلق بمطالعة حقيقة الأزل في العدم ومطالعة حقيقة الأبد في البقاء ثم قل: وتعالى جدك وهو إشارة إلى إنه أعلم وأعظم من أن تكون صفات جلاله ونعوت كماله محصورة في القدر المذكور ثم قل: ولا إله غيرك وهو إشارة إلى أن كل صفات

الجلال وسمات الكمال لـه لا لغيره فهو الكامل الذي لا كامل إلا هو والمقدس الذي لا مقدس إلا هو وفي الحقيقة لا هو إلا هو ولا إله إلا هو والعقل ههنا ينقطع واللسان يعتقل والفهم يتبلد والخيال يتحير والعقل يصير كالزمن ثم عد إلى نفسك وحالك وقل: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض فقولك سبحانك اللهم وبحمدك معراج الملائكة المقربين وهو المذكور في قولـه: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وهو أيضا معراج محمد عليه السلام لأن معراجه مفتتح بقولـه سبحانك اللهم وبحمدك وأما قولك وجهت وجهي فهو معراج إبراهيم الخليل عليه السلام وقولك إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله فهو معراج محمد الحبيب عليه السلام فإذا قرأت هذين الذكرين فقد جمعت بين معراج أكابر الملائكة المقربين وبين معراج عظماء الأنبياء والمرسلين ثم إذا فرغت من هذه الحالة فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتدفع ضرر العجب من نفس نفسك، واعلم أن للجنة ثمانية أبواب ففي هذا المقام انفتح لك باب من أبواب الجنة وهو باب المعرفة، والباب الثاني هو باب الذكر وهو قولك بسم الله الرحمن الرحيم، والباب الثالث باب الشكر وهو قولك الحمد لله رب العالمين، والباب الرابع الرجاء وهو قولك الرحمن الرحيم، والباب الخامس باب الخوف وهو قولك مالك يوم الدين، والباب السادس باب الإخلاص المتولد من معرفة العبودية ومعرفة الربوبية وهو قولك إياك نعبد وإياك نستعين، والباب السابع باب الدعاء والتضرع كما قال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل: ٦٢] وقال: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وهو ههنا قولك اهدنا الصراط المستقيم والباب الثامن باب الاقتداء بالأرواح الطيبة الطاهرة والاهتداء بأنوارهم وهو قولك صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وبهذا الطريق إذا قرأت هذه السورة ووقفت على أسرارها انفتحت لك ثمانية أبواب الجنة وهو المراد من قولـه تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ص: ٥٠] فجنات المعارف الربانية انفتحت أبوابها بهذه المقاليد الروحانية فهذا هو الإشارة إلى ما حصل في الصلاة من المعراج الروحاني. وأما المعراج الجسماني فالمرتبة الأولى أن تقوم بين يدي الله مثل قيام أصحاب الكهف وهو قولـه تعالى: ﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ١٤] بل قم قيام أهل القيامة وهو قولـه تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [المطففين: ٦] ثم اقرأ سبحانك اللهم وبعده وجهت وجهي وبعده الفاتحة وبعدها ما تيسر لك من القرآن واجتهد في أن تنظر من الله إلى عبادتك حتى تستحقرها وإياك أن

تنظر من عبادتك إلى الله فإنك إن فعلت ذلك صرت من الهالكين وهذا سر قوله إياك نعبد وإياك نستعين. واعلم أن النفس الآن جارية مجرى خشبة عرضتها على نار خوف الجلال فلانت فاجعلها محنية بالركوع فقل: سمع الله لمن حمده ثم اتركها لتستقيم مرة أخرى فإن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى فإذا عادت إلى استقامتها فانحدر إلى الأرض بنهاية التواضع واذكر ربك بغاية العلو وقل: سبحان ربي الأعلى فإذا أتيت بالسجدة الثانية فقد حصل لك ثلاثة أنواع من الطاعة: الركوع الواحد والسجودان وبها تنجو من العقبات الثلاث المهلكة فبالركوع تنجو عن عقبة الشهوات وبالسجود الأول تنجو عن عقبة الغضب الذي هو رئيس المؤذيات وبالسجود الثاني تنجو عن عقبة الهوى الذي هو الداعي إلى كل المهلكات والمضلات فإذا تجاوزت هذه العقبات وتخلصت عن هذه الدركات فقد وصلت إلى الدرجات العاليات وملكت الباقيات الصالحات وانتهيت إلى عتبة جلال مدبر الأرض والسموات فقل عند ذلك التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله فالتحيات المباركات باللسان والصلوات بالأركان والطيبات بالجنان وقوة الإيمان ثم في هذا المقام يصعد نور روحك وينزل نور روح محمد ﷺ فيتلاقى الروحان ويحصل هناك الروح والراحة والريحان فلا بد لروح محمد عليه الصلاة والسلام من محمدة وتحية فقل: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فعند ذلك يقول محمد عليه الصلاة والسلام: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وكأنه قيل لك فهذه الخيرات والبركات بأي وسيلة وجدتها؟ وبأي طريق وصلت إليها؟ فقل بقولي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقيل لك إن محمداً هو الذي هداك إليه فأي شيء هديتك له؟

فقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد فقيل لك: إن إبراهيم هو الذي طلب من الله أن يرسل إليك مثل هذا الرسول فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٢٩] فما جزاؤك له؟ فقل: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فيقال لك: فكل هذه الخيرات من محمد أو من إبراهيم أو من الله؟ فقل: بل من الحميد المجيد إنك حميد مجيد. ثم إن العبد إذا ذكر الله بهذه الأثنية والمدائح ذكره الله تعالى في محافل الملائكة بدليل قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عز وجل إذا ذكرني عبدي في ملأ ذكرته في ملأ

خير من ملئه فإذا سمع الملائكة ذلك اشتاقوا إلى هذا العبد فقال الله: إن ملائكة السماوات اشتاقوا إلى زيارتك وأحبوا القرب منك وقد جاؤك فابدأ بالسلام عليهم لتحصل لك فيه مرتبة السابقين فيقول العبد عن يمينه وعن شماله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فلا جرم أنه إذا دخل الجنة الملائكة يدخلون عليه من كل باب فيقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. انتهى التفسير الكبير ج1ص234 - 236.

قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾.

في قوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ فوائد:

أحدها: أدخل " من " التبعيضية صيانة لهم، وكفي عن الإسراف والتبذير المنهي عنه

وثانيها: قدم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، كأنه قال ويخصون بعض المال بالتصدق به.

وثالثها: يدخل في الإنفاق المذكور في الآية، الإنفاق الواجب، والإنفاق المندوب والإنفاق الواجب أقسام: **أحدها**: الزكاة وثانيها: الإنفاق على النفس وعلى من تجب عليك نفقته.

وثالثها: الإنفاق في الجهاد.

وأما الإنفاق المندوب فالمراد به الصدقة [1]. اهـ

وقال السعدي رحمه الله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير ولم يذكر المنفق عليهم لكثرة أسبابها وتنوع أهلها ولأن النفقة من حيث هي قربة إلى الله وأتى بمن الدالة على التبعيض لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيراً من أموالهم غير ضار لهم ولا مثقل بل ينتفعون هم بإنفاقه وينتفع به إخوانهم.

وفي قوله ﴿ رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم ليست حاصلة بقوتكم ولا ملككم وإنما هي رزق الله الذي خولكم وأنعم به عليكم فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم وواسوا إخوانكم

(1) التفسير الكبير ح2 - بتصرف يسير.

المعدمين، وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن لأن الصلاة متضمنة الإخلاص للمعبود والزكاة والنفقة متضمنة الإحسان على عبيده فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق [1]. اهـ

" لطائف في الإنفاق "

قال القشيري[2] – رحمه الله –:

الزاهدون أنفقوا في طريقة متابعة هواهم، فآثروا رضاء الله على مناهم والعابدون أنفقوا في سبيل الله وسعهم وقواهم فلازموا سراً وعلناً نفوسهم والمريدون أنفقوا في سبيله ما يشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شيء من دنياهم وعقباهم والعارفون أنفقوا في سبيل الله ما هو سوي مولاهم فقربهم الله الحق سبحانه وأجزاهم وبحكم الإفراد به لقاهم.

وقال أيضاً الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم والفقراء أنفقوا من هممهم على منابتهم ويقال: العبد بقلبه وببدنه وبماله فبإيمانهم قاموا بقلوبهم وبصلاتهم قاموا بنفوسهم وبإنفاقهم قاموا بأموالهم فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم وحيث قاموا لحقه بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية. ا هـ

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾.

سؤال: فإن قيل: ما معني الاستعلاء في قولـــه: " على هدي من ربهم "؟

فالجواب: " بيان لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونظيره فلان على الحق أو على الباطل[3]. اهـ

سؤال: فإن قيل ما السبب في تنكير الهدى في قولـه: ﴿ عَلَىٰ هُدًى ﴾ ؟

فالجواب: ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقدر قدره كما يقال لو أبصرت فلان لأبصرت رجلاً.

قال عون بن عبد الله: الهدي من الله كثير ولا يبصره إلا بصير ولا يعمل به إلا

(1) تفسير السعدي ص35.
(2) لطائف الإرشادات ح1 - ص57 – 58.
(3) التفسير الكبير ح2 - ص276.

يسير، ألا تري أن نجوم السماء يبصرها البصراء ولا يهتدي بها إلا العلماء [1]. اهـ

وقال أبو السعود:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الذين حكيت خصائصهم الحميدة من حيث اتصافهم بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تمييز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معني البعد للإشارة بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل [2]. اهـ

وقال - الفخر الرازي [3] - رحمه الله - في تكرير: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدي ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضاً فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين.

فإن قيل: فلما جاء بالعاطف وما الفرق بينه وبين قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] قلنا: قد اختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمت فإنهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم. شيء واحد وكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل.

﴿ هُمُ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فصل وله فائدتان: إحداهما: الدلالة على أن الوارد بعد خبر لا صفة وثانيتهما: حصر الخبر في المبتدأ. اهـ

وقال السعدي [4]: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة: ﴿ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي على هدي عظيم لأن التنكير للتعظيم وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيد الصحيحة والأعمال المستقيمة وهل الهداية في الحقيقة إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها فهي ضلالة.

وأتى بـ " على " في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء وفي الضلالة يأتي بـ " في " كما في قوله: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] لأن صاحب الهدي مستعل بالهدي مرتفع به وصاحب الضلالة منغمس فيها محتقر.

---

(1) التفسير الكبير ح2 - ص279.
(2) تفسير أبي السعود ح1 - ص33.
(3) التفسير الكبير ح2 - ص279 - بتصرف يسير.
(4) تفسير السعدي ص35.

ثم قال: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المهروب وحصر الفلاح فيهم لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم. اهـ

قولـه تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥].

قال ابن إسحاق أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا وأصل الفلاح في اللغة البقاء وقيل للمؤمن مفلح لبقائه في الجنة.

وقال عبيد: أفلح بما شئت فقد يدرك بالضعف وقد يخدع الأريب أي ابق بما شئت من كيس وحمق ثم اتسع في ذلك حتى قيل لكل من نال شيئاً من الخير مفلح. انتهى معانى القرآن للنحاس حـ1ص86 .

كلام نفيس للإمام الزمخشري:

ومعني التعريف في " المفلحون " الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو؟ فقيل زيد التائب، أي هو الذي أخبرت بتوبته. أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم تصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من الإقدام؟ إن زيد أهو هو فانظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على الاختصاص المتقين بنبيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ببصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوه وينشطك لتقديم ما قدموه ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته. اللهم زينا بلباس التقوى واحشرنا في زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة.

والمفلح: الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت لـه وجوه الظفر ولم تستغلق عليه [1]. اهـ

وقد وصفهم بأنهم على هدى من ربهم فدل ذلك على أن تلبسهم بهذه الصفات الكريمة تلبسهم بلباس الهداية من الله سبحانه وتعالي، فهم إنما صاروا متقين أولى هذه الصفات بهداية منه تعالي ثم وصف الكتاب بأنه هدي لهؤلاء المتقين بقولـه تعالي: ﴿

(1) تفسير الميزان ح1 - ص55.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾ فعلمنا بذلك: أن الهداية غير الهداية، وأن هؤلاء وهم متقون محفوفون بهدايتين هداية أولى: صاروا متقين، وهداية ثانية أكرمهم الله سبحانه وتعالي بها بعد التقوى وبذلك صحت المقابلة بين المتقين وبين الكفار والمنافقين، فإنه سبحانه يجعلهم في وصفهم بين ضلالين وعمائين ضلال أول هو الموجب لأ وصفاهم الخبيثة من الكفر والنفاق وضلال ثان يتأكد به ضلالهم الأول ويتصفون به يعد تحقق الكفر والنفاق كما يقوله تعالي في حق الكفار: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ فنسب الختم إلى نفسه تعالي والغشاوة إلى أنفسهم وكما يقول في حق المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ ﴾ [البقرة: ١٠] فنسب المرض الأول إليهم والمرض الثاني إلى نفسه على حد ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] وقوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥].

وبالجملة المتقون واقعون بين هدايتين كما أن الكفار والمنافقين واقعون بين ضلالين.

ثم إن الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الأولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة[1]. اهـ

صفات المتقين كما وردت فى سورة آل عمران:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعى: ولما نهى عما منع النصر بالنهي عن الربا، المراد بالنهي عنه الصرف عن مطلق الإقبال على الدنيا، المشار إلى ذمها في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]، وأمر بما تضمن الفوز والنجاة والقرب، وكان ذلك قد يكون مع التواني أمر بالمسارعة فيه توصلاً إلى ما أعد للذين اتقوا الموعودين بالنصر المشروط بتقواهم وصبرهم في قوله: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ

(1) هذا الكلام يحتاج إلى سند. والله أعلم.

كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] الموصوفين بما تقدم في قوله تعالى في المقصد الثالث من دعائم هذه السورة: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥]، على وجه أبلغ من ذلك بالمسارعة إلى ما يوجب المغفرة من الرب اللطيف بعباده، وإلى ما يبيح الجنة أعدت للمتقين الذين تقدمت الإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠] الذين يتخلون عن الأموال وجميع مصانع الدنيا فلا تمتد أعينهم إلى الازدياد من شيء منها ويتحلون بالزهد فيها والإنفاق لها في سبيل الله في مرضاة رسول الله ﷺ من الجهاد وغيره في السراء والضراء، لا بالإقبال على الدنيا من غنيمة أو غيرها إقبالاً يخلّ ببعض الأوامر، وبالصبر بكظم الغيظ عمن أصيب منهم بقتل أو جراحة، والعفو عمن يحسن العفو عنه في التمثيل بالقتل في أحد أو غير ذلك إرشاداً إلى أن لا يكون جهادهم إلا غضباً لله تعالى، لا مدخل فيه لحظ من حظوظ النفس أصلاً، وبالصبر أيضاً على حمل النفس على الإحسان إلى من أساء بذلك أو غيره كما فعل ﷺ في فتح مكة بعد أن كان حلف ليمثلن بسبعين منهم مكان تمثيلهم بسيد الشهداء أسد الله وأسد رسوله عمه حمزة ابن ساقي الحجيج عبد المطلب، فإنه وقف ﷺ في ذلك اليوم الذي كان أعظم أيام الدنيا الذي أثبت فيه نور الإسلام عل مشرق الأرض ومغربها، فهزم ظلام الكفر وضرب أوتاده في كل قطر على درج الكعبة وهم في قبضته فقال: **«ما تظنون إني فاعل بكم يا معشر قريش؟»** قالوا: خيراً! أخ وابن أخ كريم، قال: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**، وبالاستغفار عن عمل الفاحشة من خذلان المؤمنين أو أكل الربا أو التولي عن قتال الأعداء، وعن ظلم النفس من محبة الدنيا الموجب للإقبال على الغنائم التي كانت سبب الانهزام أو يغر ذلك مما أراد الله تعالى فقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ ﴾ أي بأن تفعلوا في الطاعات فعل من يسابق خصماً: ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي المحسن إليكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب بعمل ما يوجبها من التوبة والإخلاص وكل ما يزيل العقاب: ﴿ وَجَنَّةٍ ﴾ أي عظيمة جداً بعمل كل ما يحصل الثواب، ثم بين عظمها بقوله: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي كعرضهما، فكيف بطولها، ويحتمل أن يكون كطولهما، فهي أبلغ من آية الحديد - كما يأتي لما يأتي، وعلى قراءة: ﴿ وَسَارِعُوا۟ ﴾ بحذف الواو يكون التقدير: سارعوا بفعل ما تقدم، فهو في معناه، لا مغائر له. ا هـ (نظم الدرر ج 2 ص 156 - 157).

وقال الآلوسى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ عطف على: ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] أو ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على وجه الاستئناف وهي قراءة أهل المدينة والشام، والقراءة المشهورة قراءة أهل مكة والعراق أي بادروا وسابقوا، وقرىء بالأخير: ﴿ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ أي أسبابهما من الأعمال الصالحة، وعن علي كرم الله تعالى وجهه سارعوا إلى أداء الفرائض، وعن ابن عباس إلى الإسلام، وعن أبي العالية إلى الهجرة، وعن أنس بن مالك إلى التكبيرة الأولى، وعن سعيد بن جبير إلى أداء الطاعات، وعن يمان إلى الصلوات الخمس؛ وعن الضحاك إلى الجهاد، وعن عكرمة إلى التوبة، والظاهر العموم ويدخل فيه سائر الأنواع، وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية، وقيل: لأنها كالسبب لدخول الجنة، و: ﴿ مِّن ﴾ متعلقة بمحذوف وقع نعتاً لمغفرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم ووصف المغفرة بكونها من الرب دون الجنة تعظيماً لأمرها وتنويهاً بشأنها. ا هـ (روح المعانى ج 4 ص 56).

فصل: قال الفخر: قرأ نافع وابن عامر: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ بغير واو، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام، والباقون بالواو، وكذلك هو في مصاحف مكة والعراق ومصحف عثمان، فمن قرأ بالواو عطفها على ما قبلها والتقدير أطيعوا الله والرسول وسارعوا، ومن ترك الواو فلأنه جعل قوله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] كالشيء الواحد، ولقرب كل واحد منها من الآخر في المعنى أسقط العاطف.

والتنوين في: ﴿ مَغۡفِرَةٖ ﴾ للتعظيم ويؤيده الوصف، وكذا في: ﴿ وَجَنَّةٍ ﴾ ويؤيده أيضاً وصفها بقوله سبحانه: ﴿ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 5). بتصرف يسير.

فصل: قال الفخر: قالوا: في الكلام حذف والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرا بالمسارعة إلى فعل المأمورات وترك المنهيات، وتمسك كثير من الأصوليين

بهذه الآية في أن ظاهر الأمر يوجب الفور ويمنع من التراخي ووجهه ظاهر، وللمفسرين فيه كلمات:

إحداها: قال ابن عباس: هو الإسلام أقول وجهه ظاهر، لأنه ذكر المغفرة على سبيل التنكير، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام.

الثاني: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو أداء الفرائض، ووجهه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل.

والثالث: أنه الإخلاص وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: ووجهه أن المقصود من جميع العبادات الإخلاص، كما قال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

الرابع: قال أبو العالية: هو الهجرة.

والخامس: أنه الجهاد وهو قول الضحاك ومحمد بن اسحاق، قال: لأن من قوله: ﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية نزل في يوم أحد فكان كل هذه الأوامر والنواهي مختصة بما يتعلق بباب الجهاد.

السادس: قال سعيد بن جبير: أنها التكبيرة الأولى.

والسابع: قال عثمان: أنها الصلوات الخمس.

والثامن: قال عكرمة: إنها جميع الطاعات.

لأن اللفظ عام فيتناول الكل.

والتاسع: قال الأصم: سارعوا، أي بادروا إلى التوبة من الربا والذنوب، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولا عن الربا، ثم قال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ فهذا يدل على أن المراد منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه، والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات، لأن اللفظ عام فلا وجه في تخصيصه، ثم أنه تعالى بين أنه كما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة، وإنما فصل بينهما لأن الغفران معناه إزالة العقاب، والجنة معناها إيصال الثواب، فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين، فأما وصف الجنة

بأن عرضها السموات: فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة؛ لأن نفس السموات لا تكون عرضا للجنة، فالمراد كعرض السموات والأرض. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 5).

فائدة: قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف؛ كقوله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨] أي إلا كخلق نفس واحدة وبعثها.

قال الشاعر:

حَسَبْتَ بُغَامَ رَاحِلَتِي عَنَاقاً ::: وما هي وَيْبَ غَيْرِكَ بالعَنَاقِ

يريد صوت عناق.

نظيره في سورة الحديد: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]. ا هـ(تفسير القرطبي ج 4 ص 203 - 204).

فصل: قال الثعالبي: وقوله سبحانه: ﴿ **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾، أي: كعرض السموات والأرض، قال ابنُ عبَّاس في تفسير الآية: تقرن السمواتُ والأرَضُونَ بعضها إلى بعض؛ كما تبسطُ الثيابُ، فذلك عَرْضُ الجَنَّة؛ ولا يَعْلَمُ طولهَا إلا اللَّه سبحانه؛ وفي الحديثِ الصحيح عَنِ النَّبيِّ ﷺ : **«إِنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَسَيَأْتِي عَلَيْهَا يَوْمٌ يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِيهَا كَمَا تَزْدَحِمُ الإِبِلُ، إِذَا وَرَدَتْ خُمُصاً ظِمَاءً»** وفي الصحيح: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ المُجِدُّ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا»** فهذا كلُّه يقوِّي قولَ ابْنِ عَبَّاس، وهو قولُ الجُمْهور: "إنَّ الجنَّة أكْبرُ من هذه المخلوقاتِ المذْكورة، وهي ممتدَّة على السَّماء؛ حيْثُ شاء اللَّه تعالى، وذلك لا يُنْكَرُ، فإن في حديث النبيِّ ﷺ : **«مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَدَرَاهِمَ أُلْقِيَتْ فِي فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَمَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ»**. قال * ع *: فهذه مخلوقاتٌ أعظم بكثير جدًّا من السمواتِ والأرض، وقدرةُ اللَّه أعْظَمُ مِنْ ذلك كلِّه، قلتُ: قال الفَخْر وفي الآية وجْه ثانٍ؛ أنَّ الجنَّة التي عرضُها مثْلُ عَرْضِ السمواتِ والأرض، إنما تكونُ للرَّجُل الواحدِ؛ لأن الإنسان يَرْغَبُ فيما يكون مِلْكاً لـه، فلا بُدَّ أنْ تصير الجَنَّة المملوكة لكلِّ أحد مقْدَارُها هكذا. اهـ.

وقُدْرَةُ اللَّه تعالى أوسع، وفَضْلُه أعظم، وفي "صحيح مسلم"، والترمذيِّ، مِنْ حديث

المُغَيرة بْن شُعْبَة (رضي اللَّه عنه): " في سُؤَال موسى رَبَّهُ عَنْ أدنى أهْل الجَنَّةِ مَنْزلة، وَأَنَّهُ رَجُلٌ يَأْتِي بَعْدَ مَا يَدْخُلُ أهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّة، فَيُقَالُ لـه: أترضى أنْ يَكُونَ لكَ مَا كَانَ لِمَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، أيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لـه: لكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ، أيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لـه: لكَ ذَلِكَ، وَعَشَرَةٌ أمْثَالِهِ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ، أيْ رَبِّ، فَيُقَالُ لـه: فَإنَّ لكَ مَعَ هَذَا مَا اشتهت نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ "، قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وفي البخاريِّ من طريق ابْن مسعودٍ (رَضِيَ اللَّه عَنه): **«إنَّ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجَنَّة، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنَ النَّارِ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْواً، فَيَقُولُ لـه رَبُّهُ: ادخل الجَنَّـةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ، الجَنَّةُ ملأى، فَيَقُولُ لـه: إنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ»** ا هـ.

وفي "جامع التِّرمذيِّ"، عن ابن عُمَرَ (رضي اللَّه عنهما)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إنَّ أدنى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ إلى جنَانِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَنَعِيمِهِ وَخَدَمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ أَلْـفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً»** الحديثَ، قال أبو عيسى، وقد رُوِيَ هذا الحديثُ مِنْ غير وَجْهٍ، مرفوعًا وموقوفًا، وفي الصَّحيح ما معناه: **«إذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، تبقى فِيهَا فَضْلَةٌ، فَيُنْشِيءُ اللَّهُ لَهَـا خَلْقـاً»**، أوْ كما قال. ا هـ(الجواهر الحسان ج 1 ص 210 - 211).

أسئلة وأجوبة:

السؤال الأول: ما معنى أن عرضها مثل عرض السماوات والأرض. وفيه وجوه:

الأول: أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقاً طبقاً بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحاً مؤلفاً من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل البعض بالبعض طبقاً واحداً لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله.

والثاني: أن الجنة التي يكون عرضها مثل عرض السموات والأرض إنما تكون للرجل الواحد لأن الإنسان إنما يرغب فيما يصير ملكاً، فلا بد وأن تكون الجنة المملوكة لكل واحد مقدارها هذا.

الثالث: قال أبو مسلم: وفيه وجه آخر وهو أن الجنة لو عرضت بالسموات والأرض على سبيل البيع لكانتا ثمنا للجنة، تقول إذا بعت الشيء بالشيء الآخر: عرضته عليه

وعارضته به، فصار العرض يوضع موضع المساواة بين الشيئين في القدر، وكذا أيضا معنى القيمة لأنها مأخوذة من مقاومة الشيء بالشيء حتى يكون كل واحد منهما مثلاً للآخر.

الرابع: المقصود المبالغة في وصف سعة الجنة وذلك لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٧] فان أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا ههنا. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 9 ص 6).

وقال القرطبي:

واختلف العلماء في تأويله؛ فقال ابن عباس: تُقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض؛ فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله.

وهذا قول الجمهور، وذلك لا ينكر؛ فإن في حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ : **«ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في فلاةٍ من الأرض وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض»** فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله.

وقال الكلبي: الجِنَان أربعة: جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفردوس وجنة النعيم، وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض.

وقال إسماعيل السدي: لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلاً، فبكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض.

وفي الصحيح: **«إن أدنى أهل الجنة منزلة من يتمنَّى ويتمنَّى حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك وعشرة أمثاله»** رواه أبو سعيد الخدري، خرجه مسلم وغيره.

و " قال يعلى بن أبي مُرّة: لقيتُ التَّنُّوخي رسول هِرقْلَ إلى النبي ﷺ بحمْص شيخاً كبيراً قال: قدِمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قال: فقلت من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية؛ فإذا كتاب صاحبي: إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ : **«سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار»**.

وبمثل هذه الحجة استدل الفاروق على اليهود حين قالوا لـه: أرأيت قولكم: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ فأين النار؟ فقالوا لـه: لقد نزعت بما في التوراة.

ونَبَّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض.

قال الزُّهري: إنما وصف عرضها.

فأما طولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] فوصف البطَانَة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 204 - 205).

السؤال الثاني: لم خص العرض بالذكر.

والجواب فيه وجهان:

الأول: أنه لما كان العرض ذلك فالظاهر أن الطول يكون أعظم ونظيره قولـه: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] وإنما ذكر البطائن لأن من المعلوم أنها تكون أقل حالاً من الظهارة، فاذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة؟ فكذا ههنا إذا كان العرض هكذا فكيف الطول.

والثاني: قال القفال: ليس المراد بالعرض ههنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة، أي واسعة عظيمة، والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة.

السؤال الثالث: أنتم تقولون: الجنة في السماء فكيف يكون عرضها كعرض السماء؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن المراد من قولنا أنها فوق السموات وتحت العرش، قال عليه السلام: في صفة الفردوس: **«سقفها عرش الرحمن»** وروي أن رسول هرقل سأل النبي ﷺ وقال: إنك تدعو إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال النبي ﷺ : **«سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار»**.

" والمعنى والله أعلم أنه إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم والليل في ضد ذلك الجانب، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل، وسئل أنس بن مالك عن الجنة أفي الأرض أم في السماء؟ فقال: وأي أرض وسماء تسع الجنة، قيل فأين هي؟ قال: فوق السموات السبع تحت العرش.

والوجه الثاني: أن الذين يقولون الجنة والنار غير مخلوقتين الآن، بل الله تعالى يخلقهما بعد قيام القيامة، فعلى هذا التقدير لا يبعد أن تكون الجنة مخلوقة في مكان السموات، والنار في مكان الأرض، والله أعلم. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 6).

قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

قال الآلوسى:

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هيئت للمطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ وإنما أضيفت إليهم للإيذان بأنهم المقصودون بالذات وإن دخول غيرهم كعصاة المؤمنين والأطفال والمجانين بطريق التبع وإذا حملت التقوى في غير هذا الموضع، وأما فيه فبعيد على التقوى عن الشرك لا ما يعمه وسائر المحرمات لم نستغن عن هذا القول أيضاً لأن المجانين مثلاً لا يتصفون بالتقوى حقيقة ولو كانت عن الشرك كما لا يخفى.

وجوز أن يكون هناك جنات متفاوتة وأن هذه الجنة للمتقين الموصوفين بهذه الصفات لا يشاركهم فيها غيرهم لا بالذات ولا بالتبع ولعلها الفردوس المصرح بها في قوله ﷺ : **«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس»** وفيه تأمل. ا هـ(روح المعانى ج 4 ص 57).

فائدة: قال الفخر: قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ظاهره يدل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وقد سبق تقرير ذلك. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 9 ص 6).

فوائد لغوية: قال ابن عادل: قرأ نافعُ، وابْنُ عَامِرٍ: سارعوا - بدون واو - وكذلك هي في مصاحف المدينة والشام.

والباقون بواو العطف، وكذلك هي في مصاحف مكة والعراق ومصحف عثمانَ.

فمن أسقطها استأنف الأمر بذلك، أو أراد العطف، لكنه حذف العاطفَ؛ لقُرْب كل واحد منهما من الآخر في المعنى - كقوله تعالى: ﴿ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢]، فإن قوله: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ كالشيء الواحد، وقد تقدم ضعف هذا المذهب.

ومن أثبت الواو عطف جملة أمريةٌ على مثلها، وبعد إتباع الأثر في التلاوة، أتبع كل رسم مصحفه.

ورَوَى الكِسَائِيُّ: الإمالة في: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾، و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، و﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وذلك لمكان الراء المكسورة.

قوله: ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ صفة لـ " مَغْفِرَةٍ "، و" مِنْ " للابتداء مجازاً.

فصل: قال بعضهم: في الكلام حذف، والتقدير: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم. وفيه نظر؛ لأن الموجب للمغفرة، ليس إلا أفعال المأمورات، وترك المنهيات، فكان هذا أمراً بالمسارعة إلى فعل المأمورات، وترك المنهيات.

فصل: قال فى ملاك التأويل: قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ الآية، وفى سورة الحديد: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، والمراد فى الموضعين الحث على المبادرة إلى أفعال البر وجزيل الثواب للممتثل وقد اختلفت عبارة الأمر بذلك فى الموضعين فحذف المضاف فى الأولى وجئ فى الثانية بكاف التشبيه عوضاً منه وقيل فى الأولى: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ على الجميع وأفرد فى الثانية فقيل: ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيها ثلاثة أسئلة.

والجواب عن الأول والله أعلم: أن المسارعة إلى الشئ قبل مسابقته قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ وقد أوضحنا فى كتاب البرهان أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين وأما ترتيب الآى فلا توقف فيه وأن ذلك كله معتمد على فيه غير ترتيب النزول، وإذا ثبت هذا فوجه تقديم لفظ: "سارعوا" تقديم المسارعة ووجه تأخير سابقوا بناء المسابقة على المسارعة، ألا ترى أن المسارع إلى الشئ قد يحصل له ما سارع إليه وقد لا يحصل ولا يقال فى الغالب سبق إلا فيمن تحصل له

مطلوبه هذا هو الأكثر والمسارعة متقدمة فى الرتبة قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى ثبتت وحقت لهم وعن على رضى الله عنه: سبق رسول الله ﷺ وثنى أبو بكر وثلث عمر...، وقيل فى قوله تعالى: ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ ﴾ [النازعات: ٤] أنها الملائكة تسبق الجن إيصال الوحى إلى الأنبياء فلما كانت المسارعة والمسابقة على ما ذكرنا ورد المتقدم فى الترتيب أولاً والمتأخر ثانياً مراعاة للترتيب.

والجواب عن **الثانى**: أن آية آل عمران على حذف المضاف كما تقدم أى عرضها مثل عرض السماوات والأرض وقد أفصحت آية الحديد بما يقوم مقام هذا المضاف ويحصل معناه وهو كاف التشبيه إذ معناها معنى مثل وحذف المضاف مما يكون كثيراً عند قصد المبالغة وكذا جعل الشئ نفس الشئ وهو مما يتقدم فى آية آل عمران وهو نحو قول الشاعر رؤبة:

إن الربيع الجود والخريفا ::: يدا أبى العباس والصيوفا

وهذا كثير وإليه يرجع الوارد فى قولهم: نهارك صائم وليلك قائم وباب ذلك مما يقصد به المبالغة فيجعل نفس الشئ وأنشد سيبويه رحمه الله نحواً من ذلك.

أما النهار ففى قيد وسلسلة والليل فى بطن منحوت من الساج.

فجعل النهار فى قيد وسلسلة وجعل الليل فى بطن منحوت من السج مبالغة وإنما المجعول الشخص وقوله تعالى: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يمكن إلحاقه بهذا القبيل وإن ظن أنه يباينه.

والجامع قصد المبالغة كأن السماوات والأرض إذا أوصل بعضها ببعض مصطفا نفس عرض الجنة ومن أبيات الكتاب:

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ::: ونمت وما ليل المطي بنائم

فنفى النوم عن الليل حين جعله نفس الشخص مبالغة كما فى البيت قبل ويمكن فى هذا كله حذف المضاف أى ذو ليل المطى وذو النهار وذو الليل.

قال الإمام سيبويه رحمه الله لما أنشد هذا البيت جعله للاسم ومن هذا الضرب ما يتخرج على حذف المضاف ويمتنع ما سواه نحو قوله النابغة الجعدى:

كأن غديرهم بجنوب ::: سلى نعام قاق فى بلد قفار

أى كأن غديرهم غدير نعام قاق، والغدير الصوت

وتخريج آية آل عمران على هذا أوضح وكلا الضربين يحرز المبالغة وبالجملة فقصد المبالغة فى مثل ما تقدم يستلزم فى الغالب الإيجاز إما بالحذف وإما بجعل الشئ نفس الشئ أو بتكرار لفظ يفهم بتكراره التهويل والتعظيم ويقوم مقام أوصاف وذكر أهوال كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ ﴾ [الحاقة: ١ - ٢] ، و: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾ [القارعة: ١ - ٢]، وقد ذكر سيبويه رحمه الله هذه الضروب فى أبواب شتى لافتراقها فى أحكام تقتضى تفصيل التبويب مع اتفاقها فى ما ذكرنا وفى جرى الإيجاز فى جميعها ولما اتصل بقوله: "عرضها" فى آية آل عمران وهو مبتدأ والخبر عنه مجموع فقيل: "السماوات" فأفصح الجمع ما مهدناه من قصد المبالغة والتعظيم ثم أتبع ذلك ما يحرز مقصود ذلك من التعظيم والمبالغة أيضاً وهو وصف من أعدت له الجنة الموصوفة ووسمهم بالمتقين وهو الذين وفوا بالإيمان وتوابعه التى بها يكمل مما ذكر فى آية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ [البقرة: ١٧٧] من لدن قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولم يكن قوله تعالى: ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] بالجمع كقوله فى آية الحديد: ﴿ كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحديد: ٢١] فأفرد ولا قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] كقوله فى آية الحديد: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢١] فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التى ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ناسب ذلك جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذى لابد منه عند بيان المعنى على ما تقدم ولما لم يقصد فى آية الحديد ذلك أفصح فيها بما يعطى معنى مثل وهى كاف التشبيه وورد كل على ما يناسب ويلائم.

فإن قيل: لم خصت آية آل عمران بما تمهد من قصد المبالغة والتعظيم دون آية الحديد قلت: لبنائها على الحض على الجهاد وعظيم فضله وذكر قصة بدر واحد من لدن قوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى ما بعد الآية المتكلم فيها ولما يكن فى آية الحديد شئ من ذلك ناسب كلا ما ورد فيه والله أعلم. ا هـ (ملاك التأويل ج 1 ص 122 - 125).

قولـه: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لا بد فيه من حَذْف؛ لأن نفس السموات لا تكون عرضاً للجنة، فالتقدير: عرضها مثل عرض السموات والأرض، يدل على ذلك قولـه: " كعرض "، والجملة في محل جر صفة لـ " جَنَّةٍ ".

قولـه: ﴿أُعِدَّتْ﴾ يجوز أن يكون محلها الجَرّ، صفة ثانية لِـ " جَنَّةٍ "، ويجوز أن يكون محلها النصب على الحال من " جَنَّةٍ "؛ لأنها لما وُصِفَتْ تخصَّصت، فقَرُبَت من المعارف.

قال أبو حيان: " ويجوز أن يكون مستأنفاً، ولا يجوز أن يكون حالاً من المضاف إليه؛ لثلاثة أشياء:

أحدها: أنه لا عامل، وما جاء من ذلك متأوَّل على ضَعْفه.

والثاني: أن العرض - هنا - لا يراد به: المصدر الحقيقي، بل يراد به: المسافة.

الثالث: أن ذلك يلزم منه الفصل بين الحال، وصاحبه بالخبر ".

يعني بالخبر: قولـه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وهو رَدٌّ صحيح. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 5 ص 534 - 539). بتصرف يسير.

قولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعي: ولما وصف الجنة بين أهلها بقولـه: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي الآن وفرغ منها: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين صارت التقوى شعارهم، فاستقاموا واستمروا على الاستقامة، ثم وصف المتقين بما تضمن تفصيل الطاعة المأمور بها قبل إجمالاً على وجه معرف بأسباب النصر إلى آخر ما قص من خبر الأنبياء الماضين ومن معهم من المؤمنين بادئاً بما هو أشق الأشياء ولا سيما في ذلك الزمان من التبر ومن المال الذي هو عديل الروح فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ أي مما آتاهم الله، وهو تعريض بمن أقبل على الغنيمة: ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي في مرضاة الله في حال الشدة والرخاء.

ولما ذكر أشق ما يترك ويبذل أتبعه أشق ما يحبس فقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾ أي الحابسين: ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ عن أن ينفذوه بعد أن امتلؤوا منه.

ولما كان الكاظم غيظه عن أن يتجاوز في العقوبة قد لا يعفو حثه على العفو بقولـه:

﴿ وَٱلْعَافِينَ ﴾ وعمم في الحكم بقوله: ﴿ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي ظلمهم لهم ولو كانوا قد قتلوا منهم أو جرحوهم.

ولما كان التقدير: فإن الله يحبهم لإحسانهم عطف عليه تنويهاً بدرجة الإحسان قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ أي الذي له صفات الكمال: ﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي يكرمهم بأنواع الإكرام على سبيل التجديد والاستمرار. ا هـ(نظم الدرر ج 2 ص 157).

وقال الفخر:

اعلم أنه تعالى لما بين أن الجنة معدة للمتقين ذكر صفات المتقين حتى يتمكن الإنسان من اكتساب الجنة بواسطة اكتساب تلك الصفات. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 7).

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

فصل: قال الفخر: فيه وجوه:

الأول: أن المعنى أنهم في حال الرخاء واليسر والقدرة والعسر لا يتركون الإنفاق، وبالجملة فالسراء هو الغنى، والضراء هو الفقر.

يحكى عن بعض السلف أنه ربما تصدق ببصلة، وعن عائشة رضي الله عنها أنها تصدقت بحبة عنب.

والثاني: أن المعنى أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس.

الثالث: المعنى أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه، وإنما افتتح الله بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 7).

وقال الآلوسى:

﴿ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي في اليسر والعسر قاله ابن عباس؛ وقيل: في حال السرور والاغتمام، وقيل: في الحياة وبعد الموت بأن يوصي، وقيل: فيما يسر كالنفقة على الولد والقريب وفيما يضر كالنفقة على الأعداء، وقيل: في ضيافة الغني والإهداء

إليه وفيما ينفقه على أهل الضر ويتصدق به عليهم، وأصل السراء الحالة التي تسر والضراء الحالة التي تضر، والمتبادر ما قاله الحبر، والمراد إما ظاهرهما أو التعميم كما عهد في أمثاله أي أنهم لا يخلون في حال مّا بإنفاق ما قدروا عليه من كثير أو قليل. ا هـ(روح المعانى ج 4 ص 58).

وقال ابن الجوزى:

ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا. ا هـ(زاد المسير ج 1 ص 460).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾.

قال الفخر:

ومعنى قوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ الذين يكفون غيظهم عن الإمضاء ويردون غيظهم في أجوافهم، وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم وهو كقوله: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 7).

لطيفة: قال القرطبى: الغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان لكن فُرْقَانُ ما بينهما.

أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم.

وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيد، والله أعلم. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 207).

فائدة: قال أبو السعود: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ عطفٌ على الموصول، والعدولُ إلى صيغة الفاعلِ للدِلالة على الاستمرار، وأما الإنفاقُ فحيث كان أمراً متجدداً عبّر عنه بما يفيد الحدثَ وهو التجدد. ا هـ(تفسير أبى السعود ج 2 ص 85).

فصل: قال الفخر: قال النبي ﷺ : **«من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»** وقال عليه السلام: لأصحابه: **«تصدقوا»** فتصدقوا بالذهب والفضة والطعام، وأتاه الرجل بقشور التمر فتصدق به، وجاءه آخر فقال: والله ما عندي ما

أتصدق به، ولكن أتصدق بعرضي فلا أعاقب أحداً بما يقولـه في حديثه، فوفد إلى رسول الله ﷺ من قوم ذلك الرجل وفد، فقال عليه السلام: **«لقد تصدق منكم رجل بصدقة ولقد قبلها الله منه تصدق بعرضه»** وقال عليه السلام: **«من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفـذه زوجه الله من الحور العين حيث يشاء»** وقال عليه السلام: **«ما من جرعتين أحـب إلى الله من جرعة موجعة يجرعها صاحبها بصبر وحسن عزاء ومن جرعة غيظ كظمها»** وقال عليه السلام: **«ليس الشديد بالصرعة لكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 7).

قولـه تعالى: ﴿وَٱلْعَـافِينَ عَنِ ٱلنَّـاسِ﴾.

فصل: قال الفخر: قال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى ما ذم من فعل المشركين في أكل الربا، فنهي المؤمنون عن ذلك وندبوا إلى العفو عن المعسرين.

قال تعالى: عقيب قصة الربا والتداين: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ويحتمل أن يكون كما قال في الدية: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] إلى قولـه: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠] ويحتمل أن يكون هذا بسبب غضب رسول الله ﷺ حين مثلوا بحمزة وقال: **«لأمثلن بهم»** فندب إلى كظم هذا الغيظ والصبر عليه والكف عن فعل ما ذكر أنه يفعله من المثلة، فكان تركه فعل ذلك عفواً، قال تعالى: في هذه القصة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦] قال ﷺ : **«لا يكون العبـد ذا فضـل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمـه»** وروي عن عيسى بن مريم صلوات الله عليه: ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ذلك مكافأة إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 8).

وقال القرطبي:

قولـه تعالى: ﴿وَٱلْعَـافِينَ عَنِ ٱلنَّـاسِ﴾ العفو عن الناس أجلُّ ضُرُوب فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتّجه حقه.

وكل من استحق عقوبة فتُركت لـه فقد عُفي عنه.

واختلف في معنى "عَن النَّاس" فقال أبو العالية والكلبي والزجاج: ﴿وَٱلْعَـافِينَ عَنِ

ٱلنَّاسِ ﴾ يريد عن المماليك.

قال ابن عطية: وهذا حسن على جهة المثال؛ إذ هُم الخَدَمَة فهم يذنبون كثيراً والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثل هذا المفسَّر به.

ورُوي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مَرَقَة حارّة، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي، استعمل قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾.

قال لها: قد فعلت، فقالت: اعمل بما بعده: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾.

فقال: قدَ عَفوتُ عنك.

فقالت الجارية: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

قال ميمون: قد أحسنت إليكِ، فأنت حرّة لوجه الله تعالى.

ورُوي عن الأحنف بن قيس مثله.

وقال زيد بن سلم: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ عن ظلمهم وإساءتهم.

وهذا عام، وهو ظاهر الآية.

وقال مقاتل بن حيان في هذه الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال عند ذلك: **«إنّ هؤلاء من أمتي قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مضت»** فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧] وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك.

ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديثُ؛ وذلك من أعظم العبادة وجهادِ النفس؛ فقال ﷺ : **«ليس الشديد بالصُّرَعَةِ ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»** وقال عليه السلام: **«ما من جرعة يتجرّعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعةٍ غيظٍ في الله»** وروى أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما أشدّ من كل شيء؟ قال: **«غضب الله»**.

قال فما ينجي من غضب الله؟ قال: **«لا تغضب»** قال العرجي:

وإذا غضبت فكن وَقُوراً كاظماً فكفى به ::: للغيظ تَبْصُر ما تقول وتسمع يرضى بها شرفاً تَصبُّر ساعة ::: عنك الإله وتُرفع

وقال عروة بن الزبير في العفو:

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا ويُشْتَموا ::: حتى يُذِلُوا وإن عَزوا لأقوام لا عَفْو ذُلٌ فترى الألوانَ مُشرِقَة ::: ولكن عَفْو إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذي عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحورِ شاء»** قال: هذا حديث حسن غريب.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا كان يوم القيامة ناد منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذي أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب»** ذكره الماوردي.

وقال ابن المبارك: كنت عند المنصور جالساً فأمر بقتل رجل؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله ﷺ : **«إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدي الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب»** فأمر بإطلاقه. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 207 - 208).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال الفخر: أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾فاعلم أنه يجوز أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، وأن تكون للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء.

واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع اليه أو بدفع الضرر عنه.

أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرىء ذمته عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿

وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فان محبة الله للعبد أعم درجات الثواب. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 8).

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي يثيبهم على إحسانهم.

قال سَري السّقَطي: الإحسان أن تحسن وقت الإمكان، فليس كل وقت يمكنك الإحسان؛ قال الشاعر:

بادِرْ بِخَيرٍ إذا ما كنتَ مُقْتَدراً ::: فليس في كلّ وقتٍ أنت مُقتدِرُ

وقال أبو العباس الجُمَّاني فأحسن:

ليس في كُل ساعةٍ وأوَانٍ وإذا أَمْكَنتْ ::: تَتَهيّأْ صنائعُ الإحسان حذَراً من تَعَذّر فبادِر إليها ::: الإمكان

ا هـ(تفسير القرطبي ج 4 ص 208 - 209).

وقال الآلوسي:

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تذييل لمضمون ما قبله "وأل" إما للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أولياً وإما للعهد عبر عنهم بالمحسنين على ما قيل: إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره النبي ﷺ بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ويمكن أن يقال: الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجوه القبح، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط.

ومما يؤيد كون الإحسان هنا بمعنى الإنعام ما أخرجه البيهقي أن جارية لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجه فرفع رأسه إليها فقالت: إن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي قالت: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ قال: قد عفا الله تعالى عنك قالت:

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى، ورجح بعضهم العهد على الجنس بأنه أدخل في المدح وأنسب بذكره قبل. ا هـ(روح المعانى ج 4 ص 59).

فوائد لغوية: قال ابن عادل: قولـه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ﴾ يجوز في محله الألقاب الثلاثة، فالجر على النعت، أو البدل، أو البيان، والنصب والرفع على القطع المشعر بالمدح، ولما أخبر بأن الجنة مُعَدَّة للمتقين وصفهم بصفات ثلاث، حتى يُقْتَدَى بهم في تلك الصفات.

قولـه: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ يجوز فيه الجر والنَّصب على ما تقدم قبله.

والكَظْم: الحبس، يقال: كظم غيظه، أي: حبسه، وكَظْم القربة والسقاء كذلك، والكظم - في الأصل - مخرج النفَس، يقال: أخذ بكظمه، أي: أخذ بمجرى نفسه.

والكُظوم: احتباس النفس، ويُعَبَّر بـه عن السكوت، قال المبرد: تأويله أنه كتمه على امتلاء به منه، يقال: كَظَمْتُ السِّقَاءَ، إذا ملأته وسددت عليه، وكل ما سددت من مجرى ماء، أو باب، أو طريق، فهو كَظْم، والذي يُسَدّ به يقال لـه: الكظامة والسدادة، ويقال للقناة التـي تجـري فـي بطـن الأرض: كظامـة، لامتلائهـا بالمـاء كـامتلاء القربـة المكظومـة، والمَكْظُوم: الممتلئ غيظاً، وكأنه - لغيظه لا يستطيع أن يتكلم، ولا يُخرج نفسه، والكظيم: الممتلئ أسَفاً.

قال أبو طالب: الكامل

فَحَضَضْتُ قَوْمِي، وَاحْتَسَبْتُ قِتَالَهُمْ ::: وَالْقَوْمُ مِنْ خَوْفِ المَنَايَا كُظَّرُ

وكظم البعيرُ جِرَّتَه، إذا رَدَّها في جَوْفه، وترك الاجترار.

ومنه قول الراعي: الكامل

فَأَفَضْنَ بَعْدَ كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ ::: مِنْ ذِي الأَبَاطِحِ إِذْ رَعَيْنَ حَقِيلا

الحقيل، قيل: نبت.

وقيل: موضع، فعلى الأول هو مفعول بـه، وعلى الثاني هو ظرف، ويكون قد شذ جره بـ " في "؛ لأنه ظرف مكان مختص، ويكون المفعول محذوفاً، أي: إذْ رعين الكلأ في حقيل، ولا تقطع الإبلُ جِرَّتَها إلا عند الجهد والفزع فلا تجترّ.

ومنه قول أعشى باهلة يصف رجلاً يكثر نحر الإبل: البسيط

قَدْ تَكْظِمُ البُزْلُ مِنْهُ حِينَ تُبْصِرُهُ ::: حَتَّى تَقَطّعَ فِي أجْوَافِهَا الْجِرَرُ

والجرر جمع جِرَّة. والكظامة: حلقة من حديد تكون في طرف الميزان تجمع فيها خيوطه، وهي - أيضاً - السير الذي يُوصَل بوتر القَوْس.

والكظائم: خروق بين البئرين يجري منها الماء إلى الأخرى، كل ذلك تشبيه بمجرى النفَس وتردّده فيه. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 5 ص 539 - 541). بتصرف يسير.

من فوائد ابن عاشور فى الآيتين: قال رحمه الله: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ دون واو عطف.

تتنزّل جملة: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتمال، لِجملة: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ لأنّ طاعة الله والرّسول مسارعة إلى المغفرة والجنَّة فلذلك فُصلت.

ولكون الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنّة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصّالحة جاز عطف الجملة على الجملة الأمر بالطّاعة، فلذلك قرأ بقية العشرة: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾.

بالعطف وفي هذه الآية ما ينبئنا بأنَّه يجوز الفصل والوصل في بعض الجمل باعتبارين.

والسرعة المشتقّ منها سارعوا مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة، ويَجوز أن تكون السرعة حقيقة، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير كقوله في الحديث: «**وإذا استُنْفِرْتُمْ فانفِرُوا**».

والمسارعة، على التقادير كلّها تتعلّق بأسباب المغفرة وأسباب دخول الجنة، فتعليقها بذات المغفرة والجنة من تعليق الأحكام بالذوات على إرادة أحوالها عند ظهور عدم الفائدة في التعلّق بالذات.

وجيء بصيغة المفاعلة، مجرّدة عن معنى حصول الفعل من جانبين، قصد المبالغة في طلب الإسراع، والعرب تأتي بما يدلّ في الوضع على تكرّر الفعل وهم يريدون التأكيد والمبالغة دون التكرير، ونظيره التثنية في قولهم: لبيك وسعديك، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: ٤].

وتنكير (مغفرة) ووصلها بقولـه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مع تـأتّي الإضـافة بـأن يقـال إلـى مغفرة ربّكم، لقصد الدّلالة على التّعظيم، ووصف الجنة بأنّ عرضها السماوات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التّصريح بحرف التّشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد.

والعَرض في كلام العرب يطلق على ما يقابل الطول، وليس هو المراد هنا، ويطلق على الاتّساع لأنّ الشيء العريض هو الواسع في العرف بخلاف الطويل غير العريض فهو ضيق، وهذا كقول العُديل:

ودونَ يدِ الحَجَّاج منْ أنْ تنالني ::: بساط بأيدِي الناعِجاتِ عرِيضُ

وذِكر السماوات والأرض جار على طريقة العرب في تمثيل شدّة الاتّساع.

وليس المراد حقيقة عرض السماوات والأرض ليوافق قول الجمهور من علمائنا بأن الجنَّة مخلوقة الآن، وأنَّها في السماء، وقيل: هو عرضها حقيقة، وهي مخلوقة الآن لكنّها أكبر من السماوات وهي فوق السماوات تحت العرش، وقد رُوي: العرش سقف الجنة.

وأما من قال: إن الجنّة لم تخلق الآن وستخلق يوم القيامة، وهو قول المعتزلة وبعض أهل السنّة منهم مُنذر بن سعيد البَلُّوطي الأندلسي الظاهري، فيجوز عندهم أن تكون كعرض السماوات والأرض بأن تخلق في سعة الفضاء الّذي كان يملؤه السماوات والأرض أو في سعة فضاء أعظم من ذلك.

وأدلّة الكتاب والسنّة ظاهرة في أنّ الجنَّة مخلوقة، وفي حديث رؤيا رآها النَّبي ﷺ وهو الحديث الطويل الذي فيه قولـه: **«إنّ جبريل وميكاييل قالا لـه: ارفع رأسك، فرفع فإذا فوقه مثل السحاب، قالا: هذا منزلك، قال: فقلت: دَعاني أدخُل منزلي، قالا: إنَّه بقي لك عُمُر لم تستكمله فلو استكملت أتيت منزلك»**.

أعقب وصف الجنَّة بذكر أهلها لأنّ ذلك ممَّا يزيد التَّنويه به، ولم يزل العقلاء يتخيّرون حسن الجوار كما قال أبو تمام:

مَنْ مُبْلِغُ أفْنَاءَ يعرُب كلّها ::: أني بَنيت الجارَ قبل المنزلِ

وجملةُ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني لأنّ ذكر الجنَّة عقب ذكر النَّار الموصوفة

بأنَّها أعدّت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرّفوا مَن الذين أعدّت لهم: فإن أريد بالمتَّقين أكمل ما يتحقّق فيه التَّقوى، فإعدادها لهم لأنَّهم أهلها فضلاً من الله تعالى الّذين لا يلجون النار أصلاً عدلاً من الله تعالى فيكون مقابلَ قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ويكون عصاة المؤمنين غير التَّائبين قد أخذوا بحظٍّ من الدارين، لمشابهة حالهم حالَ الفريقين عدلاً من الله وفضلاً، وبمقدار الاقتراب من أحدهما يكون الأخذ بنصيب منه، وأريد المتّقون في الجملة فالإعداد لهم باعتبار أنَّهم مقدّرون من أهلها في العاقبة.

وقد أجرى على المتَّقين صفات ثناءٍ وتنويه، هي ليست جماع التَّقوى، ولكن اجتماعها في محلّها مؤذن بأنّ ذلك المحلّ الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشحّ المُطاع، والهوَى المتَّبع.

الصفة الأولى: الإنفاق في السَّراء والضّراء.

والإنفاق تقدّم غير مرّة وهو الصدقة وإعطاء المال والسلاح والعُدة في سبيل الله.

والسرّاء فَعْلاء، اسم لمصدر سرّه سَرّاً وسُروراً.

والضّراء كذلك من ضَرّه، أي في حالي الاتّصاف بالفرح والحزن، وكأنّ الجمعَ بينهما هنا لأنّ السرّاء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضرّاء فيها ملهاة وقلّة مَوجدة.

فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تَدلّ على أنّ محبَّة نفع الغير بالمال، الّذي هو عزيز على النَّفس، قد صارت لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلاّ عن نفس طاهرة.

الصفة الثَّانية: الكاظمين الغيظ.

وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتَّى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرّد: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شكّ أن أقوى القوى تأثيراً على النَّفس القوّة الغاضبة فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساكَ مظاهرها، مع الامتلاء منها، دلّ ذلك على عزيمة راسخة في النَّفس، وقهرِ الإرادةِ للشهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة.

الصفّة الثالثة: العفو عن النَّاس فيما أساؤوا به إليهم.

وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأنّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحقّ، فلمَّا وصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دلّ ذلك على أنّ كظم الغيظ وصف متأصّل فيهم، مستمرّ معهم.

وإذا اجتمعت هذه الصفّات في نفس سهل ما دونها لديها.

وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون والله يحبّ المحسنين. ا هـ(التحرير والتنوير ج 3 ص 220 - 222).

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين: قال عليه الرحمة: معناه سارعوا إلى علم يوجب لكم المغفرة، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال ﷺ : **«الندم توبة»** وإنما توجب المغفرةَ التوبةُ لأن العاصي هو الذي يحتاج إلى الغفران.

والناس في المسارعة على أقسام: فالعابدون يسارعون بقَدَمِهم في الطاعات، والعارفون يسارعون بهممهم في القربات، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات. فَمَنْ سارع بِقَدَمِه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته.

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول في مقابلة العَرْض، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض، فقومٌ قالوا: المغفرة من صفات الذات وهي بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُه بالتجاوز عن العبد وهو كلامه، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض.

ومن قال: مغفرته من صفات فِعْلِه قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب.

قوله جلّ ذكره: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾.

لا يدَّخِرُونَ عن الله شيئاً، ويؤثِرونه على جميع الأشياء، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد، وأموالهم في إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه

الصدقات، وقلوبهم في الطلب ثم دوام المراعاة، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات، وينفقون أسرارهم على المشاهدات في جميع الأوقات؛ ينتظرون إشارات المطالبات، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات.

قوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾: يتجاوزون عن الخَلْق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة، وأقوام يَحْلُمون على الخلق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهم فيشهدونهم بعين التسلط، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافِيَ الدرجات في الذُّلِّ لأن نفوسهم ساقطة فانية، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار في الإنشاء والإجراء؛ فعلموا أنَّ المنشئ الله؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه بالإبداع انقادوا لحكمه؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه، فأكرمهم الحق سبحانه ببَرْدِ الرضاء، فقاموا له بشرط الموافقة.

قوله: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فرضاً رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس، قال قائلهم:

رُبَّ رام لي بأحجار الأذى ::: لم أجِدْ بُدَّاً من العطف عليه

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. هذا في معاملة الحق، وأما في معاملة الخلق فالإحسان أن تَدَعَ جميع حقّك بالكلية كم كان على من كان، وتقبل منه ولا تقلده في ذلك مِنَّة. ا هـ(لطائف الإشارات ج 1 ص 277 - 278).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعي: ولما أخبر أنها للمحسنين إلى الغير ومن قاربهم أخبر أنها لمن دونهم في الرتبة من التائبين المحسنين إلى أنفسهم استجلاباً لمن رجع عن أحد من المنافقين ولغيرهم من العاصين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ ﴾ أي باشروا عن علم أوجهل فعله: ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ أي من السيئات الكبار: ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي بأي نوع كان من الذنوب، لتصير الفاحشة موعوداً بغفرانها بالخصوص وبالعموم: ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي بما له من كمال العظمة فاستحيوه وخافوه: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ﴾ الله، أي فطلبوا المغفرة

بالتوبة بشرطها: ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي فإنه يغفر لهم لأنه غفار لمن تاب.

ولما كان هذا مفهماً لأنه تعالى يغفر كل ذنب أتبعه تحقيق ذلك ونفي القدرة عليه عن غيره، لأن المخلوق لا يمضي غفرانه لذنب إلا إذا كان مما شرع الله غفرانه، فكان لا غافر في الحقيقة إلا الله قال مرغباً في الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ أي يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازى عليها: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي الملك الأعلى.

ولما كان سبحانه وتعالى قد تفضل برفع القلم عن الغافل قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي إنهم على ذنب. ا هـ(نظم الدرر ج 2 ص 158).

وقال الفخر: اعلم أن وجه النظم من وجهين:

الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان:

أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس.

وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله.

والوجه الثاني: أنه تعالى ندب في الآية الأولى إلى الإحسان إلى الغير، وندب في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس، فان المذنب العاصي إذا تاب كانت تلك التوبة إحساناً منه إلى نفسه. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 8 - 9).

فصل فى سبب نزول الآية: قال الفخر: روى ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في رجلين، أنصاري وثقفي، والرسول ﷺ كان قد آخى بينهما، وكانا لا يفترقان في أحوالهما، فخرج الثقفي مع الرسول ﷺ بالقرعة في السفر، وخلف الأنصاري على أهله ليتعاهدهم، فكان يفعل ذلك.

ثم قام إلى امرأته ليقبلها فوضعت كفها على وجهها، فندم الرجل، فلما وافى الثقفي مع الرسول ﷺ لم ير الأنصاري، وكان قد هام في الجبال للتوبة، فلما عرف الرسول ﷺ سكت حتى نزلت هذه الآية.

وقال ابن مسعود: قال المؤمنون للنبي ﷺ : كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا، فكان أحدهم إذا أذنب ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره: اجدع أنفك، افعل كذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أنهم أكرم على الله منهم حيث جعل كفارة ذنبهم الاستغفار. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 9).

وقال القرطبي:

قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في نَبْهَان التَّمار وكنيته أبو مُقْبل أتَتْه امرأة حَسْنَاء باع منها تمراً، فضمّها إلى نفسه وقبلها فندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية.

وذكر أبو داود الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني أبو بكر وصَدَق أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: **«ما مِن عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له»** ثم تلا هذه الآية: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ الآية، والآية الأخرى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ " وخرّجه الترمذي وقال: حديث حسن. وهذا عامٌّ.

وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع مَن فعل ذلك أو أكثر منه. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 209).

فصل: قال الفخر: الفاحشة ههنا نعت محذوف والتقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وذكروا في الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس وجوهاً:

الأول: قال صاحب "الكشاف": الفاحشة ما يكون فعله كاملاً في القبح، وظلم النفس: هو أي ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به.

والثاني: أن الفاحشة هي الكبيرة، وظلم النفس.

هي الصغيرة، والصغيرة يجب الاستغفار منها، بدليل أن النبي ﷺ كان مأموراً بالاستغفار وهو قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] وما كان استغفاره دالاً على الصغائر بل على ترك الأفضل.

الثالث: الفاحشة: هي الزنا، وظلم النفس: هي القبلة واللمسة والنظرة، وهذا على

قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢]. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 9).

وقال أبو حيان:

قال ابن عباس: الفاحشة الزنا، وظلم النفس ما دونه من النظر واللمسة.

وقال مقاتل: الفاحشة الزنا، وظلم النفس سائر المعاصي.

وقال النخعي: الفاحشة القبائح، وظلم النفس من الفاحشة وهو لزيادة البيان.

وقيل: جميع المعاصي وظلم النفس العمل بغير علم ولا حجة.

وقال الباقر: الفاحشة النظر إلى الأفعال، وظلم النفس رؤية النجاة بالأعمال.

وقيل: الفاحشة الكبيرة، وظلم النفس الصغيرة.

وقيل: الفاحشة ما تظوهر به من المعاصي، وقيل: ما أخفى منها.

وقال مقاتل والكلبي: الفاحشة ما دون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل، وظلم النفس بالمعصية، وقيل: الفاحشة الذنب الذي فيه تبعة للمخلوقين، وظلم النفس ما بين العبد وبين ربه.

وهذه تخصيصات تحتاج إلى دليل.

وكثر استعمال الفاحشة في الزنا، ولذلك قال جابر حين سمع الآية: زنوا ورب الكعبة. ا هـ(البحر المحيط ج 3 ص 64).

قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾.

فصل: قال الفخر: أما قوله: ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن المعنى ذكروا وعيد الله أو عقابه أو جلاله الموجب للخشية والحياء منه، فيكون من باب حذف المضاف، والذكر ههنا هو الذي ضد النسيان وهذا معنى قول الضحاك، ومقاتل، والواقدي، فإن الضحاك قال: ذكروا العرض الأكبر على الله، ومقاتل، والواقدي.

قال: تفكروا أن الله سائلهم، وذلك لأنه قال: بعد هذه الآية: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾

وهذا يدل على أن الاستغفار كالأثر، والنتيجة لذلك: الذكر، ومعلوم أن الذكر الذي يوجب الاستغفار ليس إلا ذكر عقاب الله، ونهيه ووعيده، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والقول الثاني: أن المراد بهذا الذكر ذكر الله بالثناء والتعظيم والإجلال، وذلك لأن من أراد أن يسأل الله مسألة، فالواجب أن يقدم على تلك المسألة الثناء على الله، فهنا لما كان المراد الاستغفار من الذنوب قدموا عليه الثناء على الله تعالى، ثم اشتغلوا بالاستغفار عن الذنوب. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 9).

وقال الماوردى:

﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم ذكروه بقلوبهم فلم ينسوه، ليعينهم ذكره على التوبة والاستغفار.

والثاني: ذكروا الله قولاً بأن قالوا: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، فإن الله قد سهل على هذه الأمة ما شدد على بني إسرائيل، إذ كانوا إذا أذنب الواحد منهم أصبح مكتوباً على بابه من كفارة ذنبه: اجدع أنفك، اجدع أذنك ونحو ذلك، فجعل الاستغفار، وهذا قول ابن مسعود وعطاء بن أبي رباح. ا هـ(النكت والعيون ج 1 ص 424).

قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾.

قال الفخر:

المراد منه الإتيان بالتوبة على الوجه الصحيح، وهو الندم على فعل ما مضى مع العزم على ترك مثله في المستقبل، فهذا هو حقيقة التوبة، فأما الاستغفار باللسان، فذاك لا أثر له في إزالة الذنب، بل يجب إظهار هذا الاستغفار لإزالة التهمة، ولإظهار كونه منقطعاً إلى الله تعالى، وقوله: ﴿ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي لأجل ذنوبهم. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 9 - 10)

وقال القرطبى:

وقد تقدم في صدر هذه السورة سيد الاستغفار، وأن وقته الأسحار.

فالاستغفار عظيم وثوابه جسيم، حتى لقد روَى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من**

قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر لـــه وإن كان قد فرّ مـــن الزحف» ورَوى مَكْحُول عن أبي هريرة قال: ما رأيت أكثر استغفار من رسول الله ﷺ.

وقال مكحول: ما رأيت أكثر استغفاراً من أبي هريرة.

وكان مكحول كثير الاستغفار.

قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يَحُلّ عَقْدَ الإصرار ويثبت معناه في الجنان، لا التلفظ باللسان.

فأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مِصرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصَري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قلت: هذا يقوله في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكِبّاً على الظلم! حريصاً عليه لا يُقلِع، والسُّبْحَة في يده زاعماً أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف.

وفي التنزيل: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ [البقرة: ٢٣١]. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 210 - 211).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

قال الفخر:

المقصود منه أن لا يطلب العبد المغفرة إلا منه، وذلك لأنه تعالى هو القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة، فكان هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، فصح أنه لا يجوز طلب الاستغفار إلا منه. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 10).

وقال الخازن:

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلاّ إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لا يطلب المغفرة إلاّ منه وأنه القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لا يجوز طلب

المغفرة إلا منه. ا هـ(تفسير الخازن ج 1 ص 278).

وقال النسفى:

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ "من" مبتدأ و"يغفر" خبره، وفيه ضمير يعود إلى "من" و"إلا الله" بدل من الضمير في "يغفر" والتقدير: ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم. ا هـ(تفسير النسفى ج 1 ص 180).

وقال أبو حيان:

قال الزمخشري: وصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وأنَّ التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنّه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأنّ عدله يوجب المغفرة للتائب، لأنّ العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز.

وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط.

وأنّ الذنوب وإنْ جلت فإنَّ عفوه أجل، وكرمه أعظم.

والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة انتهى.

وهو كلام حسن، غير أنه لم يخرج عن ألفاظ المعتزلة في قوله: وإنّ عدله يوجب المغفرة للتائب.

وفي قوله: وجب العفو والتجاوز، ولو لم نعلم أن مذهبه الاعتزال لتأولنا كلامه بأن هذا الوجوب هو بالوعد الصادق، فهو من جهة السمع لا من جهة العقل فقط. ا هـ (البحر المحيط ج 3 ص 64 - 65).

قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾.

قال القرطبى:

﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه.

ومنه صَرّ الدنانيرِ أي الرّبط عليها؛ قال الحطيئة يصف الخيل:

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا ابتغوا ::: عُلاَلَتها بالمُحْصَدَات أصَرَّتِ

أي ثبتت على عَدْوِها.

وقال قتادة: الإصرار الثبوت على المعاصي؛ قال الشاعر:

يُصِرّ بالليل ما تُخْفِي شَوَاكِلُه ::: يا ويحَ كلِّ مُصِرّ القلبِ خَتّار

قال سهل بن عبد الله: الجاهل ميّتٌ، والناسي نائمٌ، والعاصي سَكْران، والمصِرّ هالك، والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غداً؛ وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غداً وغداً لا يملِكه!.

وقال غير سهل: الإصرار هو أن ينوي ألا يتوب فإذا نوى التوبة (النصوح) خرج عن الإصرار.

وقول سهلٍ أحسن.

وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا توبة مع إصـــرار**». ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 211).

قال الطبرى:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا، قول من قال: "الإصرار"، الإقامة على الذنب عامدًا، وترك التوبة منه.

ولا معنى لقول من قال: "الإصرار على الذنب هو مواقعته"، لأن الله عز وجل مدح بترك الإصرار على الذنب مُواقع الذنب، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ولو كان المواقع الذنب مصرًّا بمواقعته إياه، لم يكن للاستغفار وجه مفهوم. لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم، ولا يعرف للاستغفار من ذنب لم يواقعه صاحبه، وجهٌ.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليـــوم ســـبعين**

مرة».

فلو كان مواقع الذنب مصرًّا، لم يكن لقوله: "ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة"، معنى لأن مواقعة الذنب إذا كانت هي الإصرار، فلا يزيل الاسمَ الذي لزمه معنى غيره، كما لا يزيل عن الزاني اسم "زان" وعن القاتل اسم "قاتل"، توبته منه، ولا معنى غيرها. وقد أبان هذا الخبر أن المستغفر من ذنبه غير مصرٍّ عليه، فمعلوم بذلك أن "الإصرار" غير المواقعة، وأنه المقام عليه، على ما قلنا قبل. ا هـ(تفسير الطبرى ج 7 ص 225 - 226). بتصرف يسير.

فائدة: قال الفخر: اعلم أن قوله: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه، والتقدير: فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على ما فعلوا. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 10)

فصل: قال القرطبي: قال علماؤنا: الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفّار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطِيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدّد به العاصِين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغَباً ورَهَباً؛ والرّغْبَة والرّهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العِقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب.

وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهيٌّ ينَبّه به من أراد سعادته؛ لِقبح الذنوب وضررها إذ هي سُموم مهلكة.

قلت: وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد الله ووعِيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشْحُونة بذنوبٍ اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندمُ على ما فرّط، وترك مثلَ ما سبق مخافة عقوبة الله تعالى صَدَق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مِصرّاً على المعصية وملازماً لأسباب الهلكة.

قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب: كالثلاثة الذين خُلّفوا. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 211 - 212).

فصل: قال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما

قاله سيف السنة، ولسان الأمة القاضي أبو بكر بن الطيب: أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّنَ عليه بضميره، وعزم عليه بقلبه من المعصية.

قلت: وفي التنزيل: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥] وقال: ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم: ٢٠].

فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتي بيانه.

وفي البخاري.

«إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: **«إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»** فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السِّلاح، وأنَصُّ من هذا ما خرّجه الترمذيّ من حديث أبي كبشة الأنماريّ وصححه مرفوعاً.

«إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ رجل أعطاه الله مالاً وعِلماً فهو يتّقي فيه ربّه ويصِلُ فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو (صادق النية) يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فأجرهما سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته عِلماً فهو (يخبط في ماله بغير علم) لا يتقي فيه ربه ولا يصِل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو نيته فوزرهما سواء» وهذا الذي صار إليه القاضي هو الذي عليه عامّة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمُّ الإنسانُ به وإن وَطَّن عليه لا يؤاخذ به.

ولا حجة (لـه) في قوله عليه السلام: **«من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عمِلها كتبت سيئة واحدة»** لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا، ومعنى "فإن عملها" أي أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا. وبالله توفيقنا. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 215).

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

قال الفخر:

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجهان:

الأول: أنه حال من فعل الإصرار، والتقدير: ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب حال ما كانوا عالمين بكونها محظورة محرمة لأنه قد يعذر من لا يعلم حرمة الفعل، أما العالم بحرمته فإنه لا يعذر في فعله ألبتة.

الثاني: أن يكون المراد منه العقل والتمييز والتمكين من الاحتراز من الفواحش فيجري مجرى قوله ﷺ : **«رفع القلم عن ثلاث»**. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 10).

وقال القرطبي:

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾فيه أقوال.

فقيل: أي يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها.

قال النحاس: وهذا قول حسن.

وقيل: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أني أُعاقب على الإصرار.

وقال عبد الله بن عبيد بن عُمير: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم إن تابوا تاب الله عليهم.

وقيل: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم إن استغفروا غفر لهم.

وقيل: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ بما حرّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق.

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التمادِي.

وقال الحسن بن الفضل: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن لهم رباً يغفر الذنب.

قلت: وهذا أخذه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يَحكِي عن ربه عز وجل قال: **«أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال اللّهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً فعَلِم أن له ربّاً يغفِر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أيْ ربِّ اغفر لي ذنبي فذكر مثله مرتين، وفي آخره: اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك»** أخرجه مسلم.

وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نَقْضها بمُعاوَدة الذّنب؛ لأن التوبة الأُولى طاعةٌ وقد انقضت وصحَّتْ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أُخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلْحَاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب

سواه.

وقولـه في آخر الحديث: **«اعمل ما شـئت»** أمرٌ معناه الإكرام في أحد الأقوال؛ فيكون من باب قولـه: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [الحجر: ٤٦].

وآخر الكلام خَبرٌ عن حال المخاطب بأنه مغفور لـه ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه.

ودلّت الآية والحديثُ على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منـه، قال ﷺ : **«إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»** أخرجاه في الصحيحين.

وقال:

يستوجبُ العفوَ الفتى إذَا اعتَرفْ ::: بما جَنَى من الذنوب واقترفْ

وقال آخر:

أقرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تجاوُزَه ::: إن الجُحُودَ جُحُودَ الذّنْب ذنبان

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ : **«والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبُوا لذهب الله بكم ولَجَاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهـــم»** وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفّار والتوّاب، على ما بيناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ا هـ (تفسير القرطبى ج 4 ص 212 - 213).

فائدة: قال أبو حيان نقلا عن الزمخشرى: وفي هذه الآيـات بيـان قـاطع أن الـذين آمنـوا على ثلاث طبقات: متقون، وتائبون، ومصرّون.

وأن الجنة للمتقين والتائبين منهم دون المصرين، ومن خالف في ذلك فقد كابر عقلـه وعاند ربه انتهى كلامه.

وآخره على طريقته الاعتزالية من: أن من مات مصرًّا دخل النـار ولا يخـرج منهـا أبداً. ا هـ(البحر المحيط ج 3 ص 65)

فائدة: قال الخطيب الشربينى: تنبيـه: لا يلزم من إعداد الجنـة للمتقين والتـائبين جـزاء لهم أن لا يدخلها المصرون كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم، فقول الزمخشري في "الكشاف" وفي هذه الآيات بيان قـاطع علـى أنّ الـذين آمنـوا علـى ثـلاث طبقـات: متقـون وتـائبون ومصـرون وأنّ الجنـة للمتقين والتـائبين منـهم دون

المصرين ومن خلف في ذلك فقد كابر عقله وعاند ربه جار على طريق الاعتزال من أن مرتكب الكبيرة إذا مات مصرّاً لا يدخل الجنة ونعوذ بالله من ذلك بل كل من مات على الإسلام يدخل الجنة وهو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه، وإن شاء عفا عنه. ا هـ(السراج المنير ج 1 ص 389).

فوائد لغوية: قال ابن عادل: قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾.

يجوز أن يكون معطوفاً على الموصول قبله، ففيه ما فيه من الأوجه السابقة، وتكون الجملـةُ مـن قولـه: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] جملـة اعتـراض بـين المتعاطفين.

ويجوز أن يكون " والذين " مرفوعاً بالابتداء، و" أولَئِكَ " مبتدأ ثانٍ، و" جَزَاؤهُمْ " مبتدأ ثالث، و" مَغْفِرَةٌ " خبر الثالث، والثالث وخبره خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول.

وقولـه: ﴿ إِذَا فَعَلُوا۟ ﴾ شرط، وجوابه: ﴿ ذَكَرُوا۟ ﴾.

قولـه: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ﴾ عطـف علـى الجـواب، والجملـة الشـرطية وجوابهـا صـلة الموصـول، والمفعول الأول لـ " اسْتَغْفَرُوا " محـذوف، أي: استغفروا الله لـذنوبهم، وقد تقدم الكلام على " استغفر "، وأنـه تعدى لاثنين، ثانيهمـا بحـرف الجـر، وليس هو هذه اللام، بل " من " وقد يُحْذف.

الفاحشة - هنا - نعت محذوف، تقديره: فعلوا فِعْلَةً فاحشةً.

وأصل الفُحْش: القُبْح الخارج عن الحد، فقولـه: ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ يعني: قبيحة، خارجة عما أذن الله فيه.

قال جَابر: الفاحشة: الزنا؛ لقولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ [النساء: ١٥]، وقولـه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢].

قولـه: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ﴾ استفهام بمعنى: النفي، ولذلك وقع بعده الاستثناء.

قولـه: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ بدل من الضمير المستكن في " يَغْفِرُ "، والتقدير: لا يغفر أحد الذنوب إلا الله تعالى، والمختار - هنا - الرفع على البدل، لكَوْن الكلام غيرَ إيجاب. وقد تقدم تحقيقه عند قولـه تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال أبو البقاء " مَنْ " مبتدأ، " يَغْفِرُ " خبره، و: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فاعل " يَغْفِرُ "، أو بدل من المضمر فيه، وهو الوجه؛ لأنك إذا جعلت " اللهُ " فاعلاً، احتجْتَ إلى تقدير ضمير، أي: ومَنْ يغفر الذنوب لـه غير الله.

قال شهَابُ الدين: " وهذا الذي قاله - أعني: جعله الجلالة فاعلاً - يقرب من الغلط؛ فإن الاستفهام - هنا - لا يُراد به حقيقته، إنما يرادُ " النفي "، والوجه ما تقدم من كون الجلالة بدلاً من ذلك الضمير المستتر، والعائد على " من " الاستفهامية ".

ومعنى الكلام أن المغفرة لا تُطْلب إلا من الله؛ لأنه القادر على عقاب العبد في الدنيا والآخرة، فكان هو القادر على إزالة العقاب عنه.

قولـه: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ يجوز أن تكون جملة حالية من فاعل: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾ أي: ترتب على فعلهم الفاحش ذكر الله تعالى، والاستغفار لذنوبهم، وعدم إصرارهم عليها، وتكون الجملة من قولـه: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ - على هذين الوجهين معترضة بين المتعاطفين على الوجه الثاني، وبين الحال وذي الحال على الوجه الأول.

فصل: وأصْل الإصرار: الثبات على الشيء.

قال الحسن: إتيان العبد ذَنْباً عَمْداً إصرار، حتى يتوب.

وقال السُّدِّي: الإصرار: السكوت وتَرْك الاستغفار.

وعن أبي نُصيرة قال: لقيت مولًى لأبي بكر، فقلتُ لـه: أسَمِعْتَ من أبي بكر شيئاً؟

قال: نعم، سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ : **«مَا أصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ، وَإنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبعِينَ مَرَّةً»**. وقيل: الإصرار: المداومة على الشيء، وتَرْك الإقلاع عنه، وتأكيد العزم على ألا يتركه، من قولهم: صر الدنانير، إذا ربط عليها، ومنه: صُرَّة الدراهم - لما يربط منها -.

قال الحُطَيْئة: يصف خيلاً: الطويل

عَوَابِسُ بِالشُّعْثِ الْكُمَاةِ إذَا ابْتَغَوْا ::: عُلاَلَتَها بِالْخُحْصَدَاتِ أصَرَّتِ

أي: ثبتت، وأقامت، مداغومة على ما حملت عليه.

وقال الشاعر: البسيط

يُصِرُّ بِاللَّيْلِ مَا تُخْفِي شَوَاكِلُهُ ::: يَا وَيْحَ كُلِّ مُصِرِّ القَلْبِ خَتَّارِ

و " ما " في قولـه: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ يجوز أن تكون اسمية بمعنى: الذي، ويجوز أن تكون مصدرية.

قولـه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً ثانية من فاعل: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾، وأن يكون حالاً من فاعل: ﴿يُصِرُّوا۟﴾، والتقدير: ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا من الذنوب بحال ما كانوا عالمين بكونها محرمة؛ لأنه قد يُعْذَر مَنْ لا يعلم حرمة الفعل، أما العالم بالحرمة، فإنه لا يعذر.

ومفعول: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ محذوف للعلم به.

فقيل: تقديره: يعلمون أن الله يتوب على مَنْ تاب، قاله مجاهد.

وقيل: يعلمون أن تَرْكه أوْلى، قاله ابنُ عباس والحسن.

وقيل: يعلمون المؤاخذة بها، أو عفو الله عنها.

وقال ابْنُ عَبَّاس، ومُقَاتِلٍ، والحَسَنُ، والكَلْبيُّ: وهم يعلمون أنها معصية.

وقيل: وهم يعلمون أن الإصرارَ ضار.

وقال الضَّحَّاكُ: وهم يعلمون أن الله يملك مغفرةَ الذنوب، وقال الحسن بن الفضل: وهم يعلمون أن لهم رباً يغفر الذنوب.

وقيل: وهم يعلمون أن الله تعالى، لا يتعاظمه العَفْو عن الذنوب - وإن كثرت -.

وقيل: وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غُفِرَ لهم. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 5 ص 543 - 547). بتصرف يسير.

فصل: قال القرطبي: الذنوب التي يُتاب منها إمّا كُفْرٌ أو غيره، فتوبة الكافر إيمانُه مع ندمِه على ما سلف من كفره، وليس مجرّدُ الإيمان نفسَ توبة، وغير الكفر إمّا حقٌّ لله تعالى، وإمّا حقٌّ لغيره، فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه التَّركُ؛ غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحِنث في الأيْمان والظِّهار وغير ذلك، وأمّا حقوقُ الآدميّين فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم، ومن لم يجد

السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ فعفو الله مأمولٌ، وفضله مبذولٌ؛ فكم ضمِن من التبعات وبدّل من السيئات بالحسنات.

وستأتي زيادة بيان لهذا المعنى. ا هـ

وقال رحمه الله أيضاً:

ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنْبه ويعلمْه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنباً تاب منه.

وقد تأوّل كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطي الأسكندرانيّ رضي الله عنه أن الإمام المحاسبيّ رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصي لا تصح، وأن الندم على جملتها لا يكفي، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعلٍ بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين.

ظنوا ذلك من قوله، وليس هذا مراده، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلَّف إذا عرف أفعاله، وعرف المعصية من غيرها، صحّتْ منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضي معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل؛ ومثاله رجل كان يتعاطى باباً من أبواب الربا ولا يعرف أنه ربا فإذا سمع كلام الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩] عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا، فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَسَ منه شيئاً كثيراً في أوقات متقدّمة، صحّ أن يندم عليه الآن جملة، ولا يلزمه تعيينُ أوقاته، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنَّميمة وغيرِ ذلك من المحرّمات التي لم يعرف كونها محرّمة، فإذا فَقُه العبد وتفقَّد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملة، ونَدِم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى، وإذا استحلّ مَن كان ظلمه فحاللهُ على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول، هذا مع شُحِّ العبد وحرصه على طلب حقه، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفوِّ عن المعاصي صغارها وكبارها.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: هذا مراد الإمام، والذي يدل عليه كلامه لمن تفقَّده، وما

ظنه به الظّانّ من أنه لا يصح الندم إلا على فِعلٍ فِعلٍ وحركةٍ حركةٍ وسكنةٍ سكنةٍ على التعيين هو من باب تكْلِيف ما لا يُطاق، الذي لم يقع شرعاً وإن جاز عقلاً، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها في شرب الخمر، وكم حركة تحركها في الزنا، وكم خطوة مَشاها إلى محرّم، وهذا ما لا يطيقه أحدٌ، ولا تتأتّى منه توبة على التفصيل.

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيان من أحكام التوبة وشروطها في "النساء" وغيرها إن شاء الله تعالى. ا هـ(تفسير القرطبى ج 4 ص 213 - 214). بتصرف يسير.

من فوائد ابن عاشور فى الآيـــة: قال رحمه الله: إن كان عطفَ فريقٍ آخر، فهم غيرُ المتّقين الكاملين، بل هم فريق من المتّقين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وإن كان عطفَ صفات، فهو تفضيل آخر لحال المتَّقين بأن ذُكر أوّلاً حال كمالهم، وذكر بعده حال تداركهم نقائصهم.

والفاحشة الفَعلة المتجاوزة الحدّ في الفساد، ولذلك جمعت في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [النجم: ٣٢] واشتقاقها من فَحُش بمعنى قال قولاً ذميماً، كما في قول عائشة: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً"، أو فعلَ فعلاً ذميماً، ومنه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ولا شك أنّ التَّعريف هنا تعريف الجنس، أي فعلوا الفواحش، وظلمُ النفس هو الذنوب الكبائر، وعطفها هنا على الفواحش كعطف الفواحش عليها في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [النجم: ٣٢].

فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النَّفس الكبيرة مطلقاً، وقيل: الفاحشة هي الكبيرة المتعدية إلى الغير، وظلم النَّفس الكبيرة القاصرة على النَّفس، وقيل: الفاحشة الزنا، وهذا تفسير على معنى المثال.

والذكر في قوله: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ ذكر القلب وهو ذِكر ما يجب لله على عبده، وما أوصاه به، وهو الَّذي يتفرّع عنه طلب المغفرة؛ وأمّا ذكر اللّسان فلا يترتّب عليه ذلك.

ومعنى ذكر الله هنا ذكر أمره ونهيه ووعده ووعيده.

والاستغفار: طلب الغَفْر أي الستر للذنوب، وهو مجاز في عدم المؤاخذة على الذنب، ولذلك صار يعدّي إلى الذنب باللام الدالة على التَّعليل كما هنا، وقوله تعالى: ﴿

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

ولمَّا كان طلب الصفح عن المؤاخذة بالذنب لا يصدر إلا عن ندامة، ونية إقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، كان الاستغفار في لسان الشارع بمعنى التوبة، إذ كيف يطلب العفو عن الذنب من هو مستمرّ عليه، أو عازم على معاودته، ولو طلب ذلك في تلك الحالة لكان أكثر إساءة من الذنب، فلذلك عدّ الاستغفار هنا رتبة من مراتب التّقوى.

وليس الاستغفار مجرّد قول (أستغفر الله) باللّسان والقائلُ ملتبس بالذنوب.

وعن رابعة العدوية أنَّها قالت: "استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار" وفي كلامها مبالغة فإنّ الاستغفار بالقول مأمور به في الدّين لأنَّه وسيلة لتذكّر الذنب والحيلة للإقلاع عنه.

وجملة: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معترضة بين جملة: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ﴾ وجملة: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ ﴾.

والاستفهام مستعمل في معنى النَّفي، بقرينة الاستثناء منه، والمقصود تسديد مبادرتهم إلى استغفار الله عقب الذنب، والتعريض بالمشركين الَّذين اتّخذوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله، وبالنَّصارى في زعمهم أنّ عيسى رفع الخطايا عن بني آدم ببلية صلَبه.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ ﴾ إتمام لركني التَّوبة لأنّ قوله: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ يشير إلى الندم، وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ ﴾ تصريح بنفي الإصرار، وهذان ركنا التَّوبة.

وفي الحديث: " النَّدم توبة "، وأما تدارك ما فرّط فيه بسبب الذنب فإنَّما يكون مع الإمكان، وفيه تفصيل إذا تعذّر أو تعسّر، وكيف يؤخذ بأقصى ما يمكن من التدارك.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ ﴾ حال من الضّمير المرفوع في "ذكروا" أي: ذكروا الله في حال عدم الإصرار.

والإصرار: المُقام على الذنب، ونفيُه هو معنى الإقلاع.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ حال ثانية، وحذف مفعول يعلمون لظهوره من المقام أي يعلمون سوء فعلهم، وعظم غضب الربّ، ووجوبَ التوبة إليه، وأنَّه تفضّل بقبول التَّوبة فمحا بها الذنوب الواقعة.

وقد انتظم من قوله: ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ ﴾ وقوله: ﴿

﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الأركان الثلاثة الّتي ينتظم منها معنى التّوبة في كلام أبي حامد الغزالي في كتاب التّوبة من "إحياء علوم الدّين" إذ قال: "وهي عِلْم، وحال، وفعل.

فالعلم هو معرفة ضرّ الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين ربِّه، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات ما يحبّه من القرب من ربِّه، ورضاه عنه، وذلك الألم يسمّى ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعثت منه في القلب حالة تسمّى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي والمستقبل، فتعلّقه بالحال هو ترك الذنب (الإقلاع)، وتعلّقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل (نفي الإصرار)، وتعلّقه بالماضي بتلافي ما فات".

فقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ إشارة إلى انفعال القلب.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ إشارة إلى الفعل وهو الإقلاع ونفي العزم على العودة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفساني.

وقد رتّبت هذه الأركان في الآية بحسب شدّة تعلّقها بالمقصود: لأنّ ذكر الله يحصل بعد الذنب، فيبعث على التّوبة، ولذلك رتّب الاستغفار عليه بالفاء، وأمَّا العلم بأنَّه ذنب، فهو حاصل من قبل حصول المعصية، ولولا حصوله لما كانت الفعلة معصية.

فلذلك جيء به بعد الذكر ونفي الإصرار، على أنّ جملة الحال لا تدلّ على ترتيب حصول مضمونها بعد حصول مضمون ما جيء به قبلها في الأخبار والصّفات.

ثُمّ إن كان الإصرار، وهو الاستمرار على الذنب، كما فُسِّر به كان نفيه بمعنى الإقلاع لأجل خَشية الله تعالى، فلم يدلّ على أنَّه عازم على عدم العود إليه، ولكنَّه بحسب الظاهر لا يرجع إلى ذنب ندِمَ على فعله، وإن أريد بالإصرار اعتقاد العود إلى الذنب فنفيه هو التّوبة الخالصة، وهو يستلزم حصول الإقلاع معه إذ التلبّس بالذنب لا يجتمع مع العزم على عدم العود إليه، فإنَّه متلبّس به من الآن. ا هـ(التحرير والتنوير ج 3 ص 222 - 225).

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيــة: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام " قل للظلمة حتى لا يذكروني فإني أوجبت أن أذكر من ذكرني وذكري للظلمة باللعنة ".

وقال لظلَمَةِ هذه الأمة.

﴿ أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾. ثم قال في آخر الآية: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

ويقال فاحشةُ كلِّ أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار، قال قائلهم:

أنت عيني وليس من حق عيني ::: غضُّ أجفانها على الأقذاء

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب.

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم، فاستغفروا لذنوبهم بالتبري عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به، فخلصهم من ظلمات نفوسهم. وإن رؤية الأحوال والأفعال لظُلَمَاتٌ عند ظهور الحقائق، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط في المغاليط البشرية. ا هـ(لطائف الإشارات ج 1 ص 279).

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

مناسبة الآية لما قبلها: قال البقاعى: ولما أتم وصف السابقين وهم المتقون واللاحقين وهم التائبون قال - معلماً بجزائهم الذين سارعوا إليه من المغفرة والجنة مشيراً إليهم بأداة البعد تعظيماً لشأنهم على وجه معلم بأن أحداً لا يقدر الله حق قدره -: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي العالون الرتبة: ﴿ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أي لتقصيرهم أو لهفواتهم أو لذنوبهم، وعظمها بقوله: ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي المحسن إليهم بكل إحسان، وأتبع ذلك للإكرام فقال: ﴿ وَجَنَّٰتٌ ﴾ أيّ جنات، ثم بين عظمها بقوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حال كونكم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ هي أجرهم على عملهم: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ هي، هذا على تقدير أن تكون الإشارة لجميع الموصوفين، وإن كانت للمستغفرين خاصة فالأمر واضح في نزول رتبتهم عمن قبلهم. ا هـ(نظم الدرر ج 2 ص 158).

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

قال الفخر:

والمعنى أن المطلوب أمران:

الأول: الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقولـه: ﴿ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾.

والثـــاني: إيصـال الثـواب إليـه وهـو المـراد بقولــه: ﴿ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ثم بين تعالى أن الذي يحصل لهم من ذلك وهو الغفران والجنات يكون أجراً لعملهم وجزاء عليه بقولـه: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ قال القاضي: وهذا يبطل قول من قال إن الثواب تفضل من الله وليس بجزاء على عملهم. ا هـ(مفاتيح الغيب ج 9 ص 10).

فائدة: قال ابن عاشور: وجيء باسم الإشارة لإفادة أنّ المشار إليهم صاروا أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة، لأجل تلك الأوصاف الّتي استوجبوا الإشارة لأجلها.

وهذا الجزاء وهو المغفرة وعد من الله تعالى، تفضّلا منه: بأن جعل الإقلاع عن المعاصي سبباً في غفران ما سلف منها.

وأمَّا الجنّات فإنَّما خلصت لهم لأجل المغفرة، ولو أخذوا بسالف ذنوبهم لما استحقّوا الجنَّات فالكلّ فضل منه تعالى.

وقولـه: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ تذييل لإنشاء مدح الجزاء.

والمخصوص بالمدح محذوف تقديره هو.

والواو للعطف على جملة: ﴿ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ فهو من عطف الإنشاء على الإخبار، وهو كثير في فصيح الكلام، وسمِّي الجزاء أجراً لأنَّه كان عن وعد للعامل بما عمل.

والتَّعريف في (العاملين) للعهد أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، وهذا تفضيل له والعمل المجازي عليه أي إذا كان لأصناف العاملين أجور، كما هو المتعارف، فهذا نعم الأجر لعامل. ا هـ(التحرير والتنوير ج 3 ص 225).

فائدة: قال أبو حيان: وقال الزمخشري: قال أجر العاملين بعد قولـه جزاؤهم، لأنهما في معنى واحد، وإنما خالف بين اللفظين لزيادة التنبيه على أن ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحق عليه، لا كما يقول المبطلون.

وروي أن الله عزّ وجل أوحى إلى موسى عليه السلام: ما أقلَّ حياء من يطمعُ في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي؟ وعن شهر بن حوشب:

طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة.

وعن الحسن يقول الله يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

وعن رابعة البصرية أنها كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجري على اليبس

انتهى ما ذكره، والبيت الذي كانت رابعة تنشده هو لعبد الله بن المبارك.

وكلام الزمخشري جار على مذهبه الاعتزال من أن الإيمان دون عمل لا ينفع في الآخرة. ا هـ(البحر المحيط ج 3 ص 66).

فصل: قال الآلوسي: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي وَنِعمَ أجر العاملين الجنة، وعلى ذلك اقتصر مقاتل، وذهب غير واحد أنه ذلك أي ما ذكر من المغفرة والجنات.

وفي الجملة على ما نص عليه بعض المحققين وجوه من المحسنات:

أحدها: أنها كالتذييل للكلام السابق فيفيد مزيد تأكيد للاستلذاذ بذكر الوعد.

وثانيها: في إقامة الأجر موضع ضمير الجزاء لأن الأصل ونعم هو أي جزاؤهم إيجاب إنجاز هذا الوعد وتصوير صورة العمل في العمالة تنشيطاً للعامل.

وثالثها: في تعميم العاملين وإقامته مقام الضمير الدلالة على حصول المطلوب للمذكورين بطريق برهاني.

والمراد من الكلام السابق الذي جعل هذا كالتذييل له إما الكلام الذي في شأن التائبين، أو جميع الكلام السابق على الخلاف الذي ذكرناه آنفاً، ومن ذهب إلى الأول قال: وكفاك في الفرق بين القبيلين وهما المتقون الذين أتوا بالواجبات بأسرها واجتنبوا المعاصي برمتها، والمستغفرون لذنوبهم بعدما أذنبوا وارتكبوا الفواحش والظلم أنه تعالى فصل آية الأولين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] المشعر بأنهم محسنون محبوبون عند الله تعالى، وفصل آية الآخرين بقوله جلَّ وعلا:

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ المشعر بأن هؤلاء أجراء وأن ما أعطوا من الأجر جزاء لتداركهم بعض ما فوتوه على أنفسهم، وأين هذا من ذاك؟ وبعيد ما بين السمك والسماك، ولا يخفى أنه على تقدير كون النعتين نعت رجل واحد كما حكي عن الحسن يمكن أن يقال: إن ذكر هذه الجملة عقيب تلك لما ذكره بعض المحققين وأي مانع من الإخبار بأنهم محبوبون عند الله تعالى وأن الله تعالى منجز ما وعدهم به ولا بدّ، وكونهم إذا أذنبوا استغفروا وتابوا لا ينافي كونهم محسنين أما إذا أريد من الإحسان الإنعام على الغير فظاهر، وأما إذا أريد به الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق أو أن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما صرح به في الصحيح فلأن ذلك لو نافى لزم أن لا يصدق المحسن إلا على نحو المعصوم ولا يصدق على من عبد الله تعالى وأطاعه مدة مديدة على أليق وجه وأحسنه ثم عصاه لحظة فندم أشد الندم واستغفر سيد الاستغفار؛ ولا أظن أحداً يقول بذلك فتدبر.

ثم إن في هذه الآيات على ما ذهب إليه المعظم دلالة على أن المؤمنين ثلاث طبقات، متقين وتائبين ومصرين، وعلى أن غير المصرين تغفر ذنوبهم ويدخلون الجنة، وأما أنها تدل على أن المصرين لا تغفر ذنوبهم ولا يدخلون الجنة كما زعمه البعض فلا؟ لأن السكوت عن الحكم ليس بياناً لحكمهم عند بعض ودالّ على المخالفة عند آخرين وكفى في تحققها أنهم مترددون بين الخوف والرجاء وأنهم لا يخلون عن تعنيف أقله تعييرهم بما أذنبوه مفصلاً ويا له من فضيحة وهذا ما لا بد منه على ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وحينئذ لم يتم لهم المغفرة الكاملة كما للتائبين على أن مقتضى ما في الآيات أن الجنة لا تكون جزاء للمصر؛ وكذلك المغفرة أما نفي التفضل بهما فلا، وهذا على أصل المعتزلة واضح للفرق بين الجزاء والتفضل وجوباً وعدم وجوب، وأما على أصل أهل السنة فكذلك لأن التفضل قسمان: قسم مترتب على العمل ترتب الشبع على الأكل يسمى أجراً وجزاءاً وقسم لا يترتب على العمل فمنه ما هو تتميم للأجر كماً أو كيفاً كما وعده من الاضعاف وغير ذلك، ومنه ما هو محض التفضل حقيقة واسماً كالعفو عن أصحاب الكبائر ورؤية الله تعالى في دار القرار وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى قاله بعض المحققين، وذكر العلامة الطيبي أن قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣١] وردت خطاباً لآكلي الربا من المؤمنين وردعاً لهم

عن الإصرار على ما يؤديهم إلى دركات الهالكين من الكافرين وتحريضاً على التوبة والمسارعة إلى نيل الدرجات مع الفائزين من المتقين والتائبين، فإدراج المصرين في هذا المقام بعيد المرمى لأنه إغراء وتشجيع على الذنب لا زجر ولا ترهيب فبين بالآيات معنى المتقين للترغيب والترهيب ومزيد تصوير مقامات الأولياء ومراتبهم ليكون حثاً لهم على الانخراط في سلكهم ولا بدّ من ذكر التائبين واستغفارهم وعدم الإصرار ليكون لطفاً لهؤلاء وجميع الفوائد التي ذكرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] تدخل في المعنى، فعلم من هذا أن دلالة: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] مهجورة لأن مقام التحريض والحث أخرج المصرين، والحاصل أن شرط دلالة المفهوم هنا منتف فلا يصح الاحتجاج بذلك للمعتزلة أصلاً. ا هـ(روح المعانى ج 4 ص 63 - 65).

فوائد لغوية: قال ابن عادل: قوله: ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ في محل رفع؛ نعتاً لـ " مَغْفِرَةٌ "، و" مِنْ " للتبعيض، أي: من مغفرات ربهم.

قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الضمير في: ﴿ جَزَآؤُهُم ﴾؛ لأنه مفعول به في المعنى؛ لأن المعنى: يجزيهم الله جنات في حال خلودهم ويكون حالاً مقدراً، ولا يجوز أن تكون حالاً من " جَنَّاتٌ " في اللفظ، وهي لأصحابها في المعنى؛ إذْ لو كان ذلك لبرز الضمير، لجَرَيان الصفة على غير مَنْ هي له، والجملة من قوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ في محل رفع؛ نعتاً لِـ " جَنَّاتٌ ". وتقدم إعراب نظير هذه الجمل.

قوله: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، تقديره: ونِعْمَ أجر العاملين الجنة. ا هـ(تفسير ابن عادل ج 5 ص 547).

من فوائد العلامة أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين آخِراً باعتبار اتصافِهم بما مرَّ من الصفات الحميدةِ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببعيد منزلتِهم وعلوِّ طبقتِهم في الفضل، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُم ﴾ بدلُ اشتمالٍ منه وقوله تعالى: ﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ خبرٌ له أو جزاؤهم مبتدأ ثانٍ ومغفرةٌ خبر له، والجملةُ خبرٌ لأولئك، وهذه الجملةُ خبر لقوله

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ ﴾ إلخ على الوجه الأول وهو الأظهرُ الأنسبُ بنظم المغفرةِ المنبئةِ عن سابقة الذنبِ في سلك الجزاء، إذ على الوجهين يكون قولـه تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إلخ جملةٌ مستأنفةٌ مبينةٌ لما قبلها كاشفةٌ عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين، ولم يُذكَرْ من أوصاف الأولين ما فيه شائبةُ الذنبِ حتى يُذكَرَ في مطلع الجزاءِ الشامل لهما المغفرةُ، وتخصيصُ الإشارةِ بالآخِرين مع اشتراكهما في حكم إعدادِ الجنةِ لهما تعسُّفٌ ظاهر: ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لمغفرةٌ مؤكدةً لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتيةِ بالفخامة الإضافيةِ أي كائنةٌ من جهته تعالى. والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة الحُكم والتشريفِ: ﴿ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ عطفٌ على مغفرةٌ، والتنكيرُ المُشعِرُ بكونها أدنى من الجنة السابقةِ مما يؤيد رُجحانَ الوجهِ الأول ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ حالٌ مقدّرةٌ من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعولٌ به في المعنى لأنه في قوة يجزيهم الله جناتٌ خالدين فيها، ولا مَساغَ لأن يكون حالاً من جناتٌ في اللفظ وهي لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير.

﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ المخصوصُ بالمدح محذوفٌ أي ونعم أجرُ العاملين ذلك، أي ما ذُكر من المغفرة والجناتِ، والتعبيرُ عنهما بالأجر المشعر بأنهما يُستحقان بمقابلة العمل وإن كان بطريق التفضُّل لمزيد الترغيبِ في الطاعات والزجرِ عن المعاصي، والجملةُ تذييلٌ مختصٌّ بالتائبين حسبَ اختصاص التذييل السابق بالأولين وناهيك مضمونُهما دليلاً على ما بين الفريقين من التفاوت النيِّر والتبائُن البيِّن، شتانَ بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتِهم. ا هـ(تفسير أبى السعود ج 2 ص 87).

لطيفة: قال فى ملاك التأويل: قولـه تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، وفى سورة العنكبوت: ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

للسائل أن يسأل عن وجه العطف فى الأولى وقولـه فى الثانية: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ غير معطوف على ما قبله.

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى لما وقع فيها ذكر الجزاء مفصلا معطوفا فقيل:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران: ١٣٦] ناسبه أن عطفت الجملة الممدوح بها الجزاء فقيل: ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ ولما لم يفصل الجزاء فى سورة العنكبوت ولا وقع فيه عطف جاءت جملة المدح غير معطوفة ليتناسب النظم والله أعلم. ا هـ(ملاك التأويل ج 1 ص 125).

ولكن ما أنواع النفس؟

النفس إما أن تكون مطمئنة أو لوامة أو أمارة بالسوء وإما أن تكون راضية أو مرضية وهي ملهمة إما بالخير أو بالشر وقد تكون نفس الإنسان متغيرة على مدار اليوم الواحد فالإيمان يزيد وينقص ولكن نفس المؤمن دائماً ملهمة بالخير فيعمل صالحاً ولكن قد ينساق إلى هوى نفسه فتأمره بالسوء ثم بعد ذلك يتذكر إيمانه بالله سبحانه وتعالى فتلومه نفسه على ما فعل فيتوب إلى الله ويندم على ما فعل وتطمئن نفسه مرة أخرى بذكر الله تعالى. وإليكم أنواع النفس.

أولا – النفس المطمئنة:

وهي النفس التي تداوم على فعل الطاعات وترك المنكرات وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وهي دائماً ملهمة بالخير.

النفس المطمئنة لا تأمر صاحبها إلا بالخير دائما ولا تحمل شيئاً من أمراض القلوب من حقد أو حسد أو غل أو نفاق بل تجد صاحبها نقي السريرة منشرح الصدر سليم القلب طاهر البدن يحب الخير لكل الناس فإذا رأى بأحد نعمة لا يتمنى زوالها منه بل يدعو الله أن يزيده من فضلة ويبارك لـه فيها:

أدبت نفسي فما وجدت لها إن كان مـــن ::: من بعد تقوى الإله من أدب نفس فـــإن
فضة كلامك يا ::: السكوت من ذهب

ثانيا – النفس اللوامة:

وقد أقسم الله تعالى بها وذلك في قولـه: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [القيامة: ١ - ٢] قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه قائلا: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. تفسير القرطبي جزء 18 سورة القيامة

رأيت الذنوب تميت القلوبَ وتركُ ::: ويورث الذلَ إدمانُها وخيرٌ لنفسك
الذنوبِ حياةُ القلوبِ ::: عصيانُها

ثالثا – النفس الأمارة بالسوء:

وهي النفس الخبيثة التي تشتهي فعل الشر دائماً ولا تأمر صاحبها إلا بمعصية فتأمره بفعل كل ما هو سيئ وترك كل ما هو حسن وتأمره بالمنكر وتنهاه عن المعروف وتأمره أيضاً بمعصية الخالق وظلم المخلوق فتجد نفسه مملوءة بكل أمراض القلوب من حقد وحسد وغل ونفاق وبغض وتجدها تحمل كل ما هو نجس وسيئ من الأخلاق المذمومة وهي نفس المنافق والكافر والمشرك وقد ورد ذكرها في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ويوم القيامة لا ينجومن النار ولا يدخل الجنة إلا من أتي الله بقلب سليم. سليم من الشرك والنفاق وغيرهما من الخبائث كما قال تعالى:

﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩ ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨] [٩] وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية»** قالوا: يا رسول الله! هذا شر صاحب في الأرض. قال: **«فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم»** قرطبي تفسير القرطبي جزء9 سورة يوسف

أشكو إلى الله نفساً ما تلائمني ما إن تزال ::: تبغي هلاكي ولا آلو أناجيها فيها الهلاك
تناجيني بمعصية أخيفها بوعيد الله مجتهداً ::: وإني لا أواتيها وليس تنفك يلهيها ترجيها
:::

وقد يسأل سائل كيف أعرف أن نفسي مطمئنة أو لوامة أو أمارة بالسوء؟ أو بمعنى آخر ما صفات كل نفس؟

إذا كان لديك يقينا دائماً أن الله معك ولا يخزيك أبداً وأن الله لا يأمر أو يقضي إلا بما هو في صالحك اطمأنت نفسك وتغلبت على صراعات نفسك فللنفس صراعات بين فعل الخير وارتكاب المعصية فإذا غلبت فعل الخير على الشر كنت من أصحاب النفس المطمئنة وإذا غلبت فعل الشر على الخير في كل أحوالك كنت من أصحاب النفس الأمارة بالسوء وأما إذا غلبت الخيرتارة ولكن قد تضطرك نفسك إلى ارتكاب بعض

المعاصي تارة أخرى ولامتك نفسك على فعلها فعدت إلى فعل الخير مرة أخرى كنت من أصحاب النفس اللوامة وإليك بعض صفات هذه الأنفس

أولا – صفات النفس المطمئنة:

1 – المداومة على ذكر الله

النفس المطمئنة دائماً تذكر الله لا يشغلها عن ذكره شاغل سواء كان ولداً أو زوجة أو مالاً فهي مع الله تحيا بحبه وتطمئن بذكره وتتمنى لقاءه وفي ذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨] وهي لا تغفل عن ذكر الله أبداً ولذلك لا تفعل شيئاً يغضبه ويذكر صاحبها الله سبحانه على كل أحواله كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩١] وكذلك في كل أوقاته في السر والعلن كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

إذن يكون الإنسان على كل أحواله ذاكراً لله عز وجل فذكر الله نبراساً ينير له قلبه ويهديه إلى الطريق المستقيم لا يضل عنه ولا يزيغ أبداً.

أنت أنسي ومنيتي وسروري يا عزيزي ::: قد أبى القلب أن يحبى سواكا طال شوقي
ومنيتي واشتياقي ليس سؤلي من الجنان ::: متى يكون لقاكا غير أني أريدها نعيم ::: لأراكا

لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وذكر الله أساس كل عمل صالح ولك أن تتخيل رجلاً يذكر الله على كل أحواله وحركاته أيفعل شيئاً يغضبه؟ وهل الذي يحمد الله بقوله الحمد لله يطمع في شيءلم يكتبه الله له أو يتمنى ما في يد الآخرين وليس له فيه حق؟ وهل الذي ملأ قلبه بذكر الله يجد الحقد في قلبه مكاناً؟ وهل الذي ملأ قلبه بحب الله ورسوله تجد في قلبه بغضاً لأحد؟

فكر قليلاً وسوف تجد الإجابة إن شاء الله هدانا الله وإياك إلى ما يحب ويرضى.

2 – سلامة الصدر

و النفس المطمئنة صاحبها من أشد المقربين إلى الله تعالى وتجد إيمانه من أعلى

درجات الإيمان وهم الأنبياء والصديقون وإذا تفكرت في سير الأنبياء تجد أن الله زكي أنفسهم أولاً ثم بعثهم بالرسالة بعد ذلك فغسل الله قلوب أنبيائه بالحكمة والإيمان وذلك حتى يستقبلوا النور الإلهي بنفس مطمئنة لا تزيغ ولا تضطرب ونزع الله من قلوبهم الغل والحسد والحقد وكل سواد من شأنه أن يعمي القلوب ويزيغ الأبصار فهذا سيدنا موسى عليه السلام يدعو الله قائلا: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥] وهذا خير البرية ﷺ عندما أراده الله سبحانه وتعالى أن يستقبل النور الإلهي شرح صدره مرتين الأولى في سن الخامسة - وهو ما اتفق عليه أئمة أهل السير - من حديث أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : **«أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لامَهُ وَأَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ»** رواه أحمد ومسلم وصححه الألباني.

والثانية: قبل القيام برحلة الإسراء والمعراج من حديث أبي ذر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : **«قَالَ فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي»** صحيح رواه البخاري كتاب الصلاة 336.

وهنا نلاحظ أن القلب إن لم يُملأ بحب الله والإيمان به مُلِيء بوسوسة الشيطان وهوى النفس ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله: **«أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِه»** رواهِ الترمذي وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وصححه الألباني 4402.

وعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : **«كَانَ إِذَا تَشَهَّدَ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَه وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَه»** أبو داود كتاب الصلاة وصححه الألباني.

فالرسول ﷺ وهو رسول الله الذي خاطبه ربه قائلا: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] يدعو ربه بهذه الأدعية وهو ذو النفس المطمئنة والقلب السليم والروح الطاهرة والخلق القويم فكيف بنا نحن؟

وقد كان ﷺ يمنع أصحابه أن يبلغوه عن أحد شيئاً فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»** أبوداود كتاب الأدب وضعفه الألباني.

3 – القناعة

كان من دعاء النبي ﷺ فيما رواه الحافظ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال لرجل: **«قل اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك»** ورواه الطبراني في الكبير تحقيق الألباني (ضعيف) انظر حديث رقم: 4099 في ضعيف الجامع.

وهنا قد وضح لنا المعصوم ما يجب أن تتصف به النفس المطمئنة من الإيمان بالله والقناعة والرضا بالقضاء قال ذو النون: من وثق بالمقادير لم يغتم وقال من عرف الله رضي بالله وسُر بما قضى الله.

والقناعة رضا العبد بما قسمه ربه له من المال والزوجة والأولاد وهي قناعة بالموجود وترك الحزن على المفقود والقناعة أيضا: أن تحمد الله على كل أحوالك وتشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ويتحقق الحمد والشكر بالقناعة وتقوى الله تعالى فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ»** ابن ماجة وصححه الألباني 4580

عليك بتقوى الله واقنع برزقه وتلهك ::: فخير عباد الله من هو قانع فقد يهلك
الدنيا ولا تطمع بها ::: المغرور فيها المطامع

وقد أوجز من أوتي جوامع الكلم في تعريف القناعة في قوله ﷺ : **«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَه الدُّنْيَا»** رواه ابن ماجة وحسنه الألباني 6042.

وهي أيضا أن ترضى برزق الله ولا تقيس كل شيء بالمال فإن الغنى غنى النفس وكما قال رسول الله ﷺ : **«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»** ابن ماجة وصححه الألباني 5377

ولماذا لا نقنع؟ وقد قال رسول الله ﷺ : عليكم بالقناعة، فإن القناعة مال لا ينفد الطبراني في الأوسط ووضعه الألباني 3775 في الضعيفة

أنشد البحتري:

وأرى همـــــتي تكلفـــــني ولو أني ::: حمل أمر خفيفه لثقيل لكفاني من الكـــثير
رضيت مقسوم حظي ::: القليل

ولماذا لا نقنع؟ ما كنا على يقين أن الله يرزق من يشاء كيفما يشاء بما فيه مصلحة العباد وأن ما من دابة في الأرض إلى على الله رزقها كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [هود:] [٦] فهي الرضا والتعفف وترك المسألة فقد قال الشاعر:

صان وجهي عن السؤال بحمد ::: الله أني أرى القناعة مالي

واعلموا أن القناعة عز الفقير والمسكين وهي رأس مال كل متعفف صان نفسه عن مسألة الآخرين:

أفادتني القناعة كل عز فصيرها لنفســـك ::: وهل عز أعز من القناعة وصـــير بعـــدها
رأس مال ::: التقوى بضاعه

ولكن في أي شيء يجوز ألا نقنع؟

المؤمن الحق هو أن يقنع برزق الله تعالى ولكنه لا يقنع من استكثار فعل الخير وتحصيل علوم الدين ولكننا الآن وقد أكلتنا الدنيا وجعلتنا ندور في رحاها أصبح كل همنا هو كيف نجمع الأموال حتى يكون لنا قيمة في المجتمع الذي يقيس كل شيءٍ بالمال

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا فاستغن ::: ولا أراهم رضوا في العيش بالدون كمـــا
بالدين عن دنيا الملوك ::: استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أمراض القلوب:

الأمراض نوعان: بدني ونفسي أو قلبي

و مرض البدن خلال صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها ويحب الأشياء التي تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل في البدن

فيداوى (ابن تيميه: أمراض القلوب)

وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله تعالى (في قلوبهم مرض) أي شك وتارة يفسره بشهوة الزنا كما فسر به قوله (فيطمع الذي في قلبه مرض) (ابن تيميه أمراض القلوب)

والمرض النفسي هو حدوث اضطرابات وصراعات نفسية وقلبية تجعل الإنسان يشعر بعدم الطمأنينة ينتج عنها أفعال خارجية تضر به وبمن حوله سواء كان عن قصد أو غير قصد.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى القلب الذي يحمل صفات من شأنها أن توجد الشحناء والبغضاء بين الناس بالمرض فهذه نفوس مريضة عظيمة الداء وذلك في قوله تعالي: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

الطمع من أمراض القلوب:

والطمع: عكس القناعة وهو عدم الرضا بقسمة الله تعالى والرغبة في الحصول على ما في يد الآخرين دون بذل أي مجهود من ناحيته فالإنسان مريض القلب والنفس يشتهي النعمة التي في يد أخيه مع العلم أن في يده مثلها ولكنه الطمع فيطمع الإنسان في شيء ليس فيه مطمع ويشعر دائماً أنه في احتياج لهذا الشيء وهو ليس من حقه كما قال رسول الله: استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع ومن طمع غير مطمع حين لا مطمع. هذا حديث مستقيم الإسناد ولم يخرجاه. الحاكم وضعفه الألباني 815.

ولماذا الطمع؟ وقد حذرنا رسول الله منه عندما جاءه رجل وقال له أوصني يا رسول الله فقال: **«عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما تعتذر منه»** رواه الحاكم وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وضعفه الألباني3739

لا تخضعن لمخلوق على طمع واسترزق ::: فإن ذاك مضر منك بالدين فإنما هي بين الله مما في خزائنه ::: الكاف والنون

وقد يسأل سائل هل الطمع مرض نفسي وقلبي؟

سوف يجيبك رحمة الله للعالمين حيث أنه كان يتعوذ ﷺ من النفس التي لا تشبع في الحديث الذي رواه **«عَبدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ وَمِنْ عِلْمٍ لا ينفع الترمذي»** تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 1297 في صحيح الجامع.

فالنفس التي لا تشبع هي بالطبع مريضة يجب علاجها وتزكيتها حتى تهدأ وترضى برزق الله وقضائه وقد ذكر الله جل وعلا في كتابه العزيز أن الطمع مرض قلبي فقد قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

لا يملأ نفس ابن آدم إلا التراب:

والإنسان الذي يطمع لا يملأ نفسه إلا التراب والمخزي حقاً أنك تجد الإنسان ميسور الحال وقد رزقه الله من حيث لا يحتسب ومع ذلك لا يقنع وتجده متلهفاً للمزيد وقد أخبر عن ذلك من لا ينطق عن الهوى ﷺ كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مَالٍ لأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُمَا ثَالِثٌ وَلا يَمْلا نَفْسَهُ إِلا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»** ابن ماجة تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 1781 في صحيح الجامع.

الحرص لؤم ومثله الطمع ما مـــن ألـــف ::: اجتمع الحرص قط والورع وجشع النفس
الحرص لم يزل جشعاً ::: ما لـــه شبع

ولكن هل يجوز الطمع في بعض الحالات؟

ذكرنا أنه يجوز عدم القناعة في الاستكثار من أعمال البر والخير بل يجوز الطمع في بعض الحالات فقد نهانا ﷺ من الطمع في غير مطمع إذن هناك أشياء لا يجب فيها الطمع وأشياء يجوز فيها الطمع وهو ما يطلق عليه التمني المحمود

1 – الطمع فيما عند الله تعالى:

وهو أن تطمع في الزيادة من فضل الله وفي رحمته قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ ﴾ [الرعد: ١٢] أي خوفاً من عقابه وطمعاً في فضله ورحمته وقال أيضاً: ﴿ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥١ ﴾

[الشعراء: ٥١] ومعنى الطمع في الآيتين الرجاء أي أننا نرجو من الله عز وجل أن يغفر لنا ذنوبنا ويعمنا بفضله ويرحمنا من عقابه.

ويتضح هذا المعنى من قول الرسول ﷺ : **«إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا وحمدنا الله، ثم قال إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا وحمدنا الله، ثم قال: إني لأطمع أن تكونوا نصف أهل الجنة، إنما مثلكم في الناس كمثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كمثل الشعرة السوداء في الثور الأبيض»** رواه الطبري تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 89 في صحيح الجامع. وفي رواية: **«إني لأرجو»**.

سئل إبراهيم بن أدهم بما يتم الورع قال بتسوية جميع الخلق في قلبك والاشتغال عن عيوبهم بذنبك وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل فكر في ذنبك وتب إلى ربك ليثبت الورع في قلبك واحسم الطمع إلا من ربك

ولكن هل الطمع يؤدي إلى التواكل؟

الطمع في رحمة الله وفي فضله يسبقه ويصاحبه إيمان وعمل حتى لا يكون ذلك تواكلاً فتسبقه النية الخالصة ويصاحبه العمل الصادق وذلك لقول النبي ﷺ : **«لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»** صحيح رواه مسلم والمقصود من ذلك أن تتقرب إلى الله تعالى بأفضل الأعمال لينشر لك من رحمته وينعم عليك بفضله ومعنى الطمع في الحديث حسن الظن بالله بعد أداء ما أمر به واجتناب ما نهى عنه كما قال تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المعارج: ٣٨] وهو تعجب من الكافرين الذين يرفضون عبادة الله سبحانه وتعالى ويطمعون في جناته.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المدثر: ١٥] أي بعد ما أنعمت عليه بالنعم الكثيرة وكفر بها يطمع أن أزيدها له.

وانظر إلى قول هذا الرجل يوم القيامة في الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن آخر من يدخل الجنة رجلٌ يمشي على الصراط فينكب مرةً ويمشي مرةً وتسفعه النار مرةً فإذا جاوز الصراط التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدًا من الأولين والآخرين قال: فترفع له شجرةٌ**

فينظر إليها فيقول: يا رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول أي عبدي فلعلي إن أدنيتك منها سألتني غيرها فيقول: لا يا رب ويعاهد الله أن لا يسأله غيرها والرب عز وجل يعلم أنه سيسأله لأنه يرى ما لا صبر له يعني عليه فيدنيه منها ثم ترفع له شجرةٌ وهي أحسن منها فيقول: يا رب أدنني من هذه الشجرة فأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول: أي عبدي ألم تعاهدني يعني أنك لا تسألني غيرها فيقول يا رب هذه لا أسألك غيرها ويعاهده والرب يعلم أنه سيسأله غيرها فيدنيه منها فترفع له شجرةٌ عند باب الجنة هي أحسن منها فيقول رب أدنني من هذه الشجرة أستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول: أي عبدي ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها فيقول: يا رب هذه الشجرة لا أسألك غيرها ويعاهده والرب يعلم أنه سيسأله غيرها لأنه يرى ما لا صبر له عليها فيدنيه منها فيسمع أصوات أهل الجنة فيقول يا رب الجنة الجنة فيقول عبدي ألم تعاهدني أنك لا تسألني غيرها فيقول: يا رب أدخلني الجنة قال: فيقول عز وجل: ما يصريني منك أي عبدي أيرضيك أن أعطيك من الجنة الدنيا ومثلها معها قال: فيقول: أتهزأ بي وأنت رب العزة قال فضحك عبد الله حتى بدت نواجذه ثم قال: ألا تسألوني لم ضحكت ؟ قالوا له: لم ضحكت ؟ قال: لضحك رسول الله ﷺ ثم قال لنا رسول الله ﷺ ألا تسألوني لم ضحكت؟ قالوا: لم ضحكت يا رسول الله؟ قال: لضحك الرب حين قال أتهزأ بي وأنت رب العزة» صحيح رواه مسلم وأحمد.

2 – الطمع في زيادة الخير والبر:

وهو أن تتمنى الخير لك ولغيرك وإن كنت لا تملكه الآن والتمني المحمود: أن تري أحد الأبرار كثير العطاء وكثير أعمال الخير فتتمنى لو أن لك مثل ما يملك لتفعل مثل ما يفعل وهذا لا حرج فيه بل يكون أجرك وأجره سواء كما قال رسول الله ﷺ : «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفرٍ رجلٌ آتاه الله مالًا وعلمًا فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه ورجلٌ آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا فهو يقول لو كان لي مثل ما لهذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال قال رسول الله ﷺ فهما في الأجر سواءٌ ورجلٌ آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه ورجلٌ لم يؤته الله مالًا ولا علمًا فهو يقول لو كان لي مالٌ مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال قال رسول الله ﷺ فهما في الوزر سواءٌ» رواه أحمد والترمذي تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 3024 في صحيح الجامع.

أو أن تطمع في أن تعبد الله في أفضل أوقات التعبد كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل فإن صلاة آخر الليل مشهودةٌ وذلِك أفضل»** صحيح رواه مسلم والترمذي.

صور وعاقبة الطمع:

للطمع صور في المجتمع الذي نعيش فيه الآن منها:

1 - طمع الزوجات فالزوجة الجشعة هي التي لا ترضى بدخل زوجها وتتطلع لما في أيدي صديقاتها الأخريات فتعقد المقارنة بين دخل زوجها وبين دخول أزواج صديقاتها فيكون نتيجة ذلك عدم رضاها عن زوجها مما يمثل ذلك عبئاً عليه فقد تدفعه إلى الاقتراض من الآخرين حتى يصير مثقلاً بالديون فيعاني من همين هم الزوجة وهم الدين أو قد تدفعه إلى الكسب الحرام فتمتد يده إلى ما يغضب الله ونتيجة ذلك تكون العاقبة مهينة ومخزية إلا من تاب إلى الله سبحانه وتعالى.

2 - انتشار الرشوة والاختلاس والسرقة: من صور الطمع في المجتمع وعدم الرضا بالمتاح والمقسوم من الرزق اضطرار الموظف إلى الرشوة أو خيانة الأمانة باختلاس أموال الغير أو إلى السرقة وتناسى أولئك أن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته أو بسخاوة وطيب نفس ولا يطلب ما عند الله بمعصيته أبداً فقد قال ﷺ : **«إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَه فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَه»** فِيه رواه الترمذي وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ

قال رسول الله ﷺ : **«نفث روح القدس في روعي أن نفساً لن تخرج من الدنيا حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته»** رواه الطبراني وعبدالرزاق وابن أبي شيبة:

المال ينفد حله وحرامه ليس التقي بمتق ::: يوماً ويبقى بعده آثامه حتى يطيب شرابه
إلهه ويطيب ما يجني ويكسب أهله نطق ::: وطعامه ويطيب من لفظ الحديث كلامه
النبي لنا به عن ربه ::: فعلى النبي صلاته وسلامه

وإليكم هذه القصة لنأخذ منها العبر والعظات ولنتعرف على عاقبة الطمع والذي

يؤدي إلى الهلاك: «صحب سيدنا عيسى يهودي. وكان مع اليهودي رغيفان، ومع عيسى رغيف، فقال لـه عيسى: شاركني. فقال اليهودي: نعم. فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف ندم، فلما ناما جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف، فلما أكل لقمة قال لـه عيسى: ما تصنع؟ فيقول: لا شيء! فيطرحها، حتى فرغ من الرغيف كله. فلما أصبحا قال لـه عيسى: هلم طعامك! فجاء برغيف، فقال لـه عيسى: أين الرغيف الآخر؟ قال: ما كان معي إلا واحد. فسكت عنه عيسى، فانطلقوا، فمروا براعي غنم، فنادى عيسى: يا صاحب الغنم، أجزرنا شاةً من غنمك. قال: نعم، أرسل صاحبك يأخذها. فأرسل عيسى اليهودي، فجاء بالشاة فذبحوها وشووها، ثم قال لليهودي: كل، ولا تكسرن عظماً. فأكلا. فلما شبعوا، قذف عيسى العظام في الجلد، ثم ضربها بعصاه وقال: قومي بإذن الله! فقامت الشاة تثغو، فقال: يا صاحب الغنم، خذ شاتك، فقال لـه الراعي: من أنت؟ فقال: أنا عيسى ابن مريم. قال: أنت الساحر! وفر منه. قال عيسى لليهودي: بالذي أحيى هذه الشاة بعد ما أكلناها، كم رغيفاً كان معك؟ فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد. فانطلقا...، حتى مرا على كثر قد حفرته السباع والدواب، فقال اليهودي: يا عيسى، لمن هذا المال؟ قال عيسى: دعه، فإن لـه أهلاً يهلكون عليه. فجعلت نفس اليهودي تطلع إلى المال، ويكره أن يعصى عيسى، فانطلق مع عيسى.، فقال لليهودي أخرجه حتى نقسمه. فأخرجه، فقسمه عيسى بين ثلاثة، فقال اليهودي: يا عيسى، اتق الله ولا تظلمني، فإنما هو أنا وأنت!! وما هذه الثلاثة؟ قال لـه عيسى: هذا لي، وهذا لك، وهذا الثلث لصاحب الرغيف. قال اليهودي: فإن أخبرتك بصاحب الرغيف، تعطيني هذا المال؟ فقال عيسى: نعم. قال: أنا هو. قال عيسى: خذ حظي وحظك وحظ صاحب الرغيف، فهو حظك من الدنيا والآخرة. فلما حمله مشى به شيئاً، فخسف به. ومر بالمال أربعة نفر، فلما رأوه اجتمعوا عليه، فقال اثنان لصاحبيهما: انطلقا فابتاعا لنا طعاماً وشراباً ودواب نحمل عليها هذا المال. فانطلق الرجلان فابتاعا دواب وطعاماً وشراباً، وقال أحدهما لصاحبه: هل لك أن نجعل لصاحبينا في طعامهما سماً، فإذا أكلا ماتا، فكان المال بيني وبينك؟ فقال الآخر: نعم! ففعلا. وقال الآخران: إذا ما أتيانا بالطعام، فليقم كل واحد إلى صاحبه فيقتله، فيكون الطعام والدواب بيني وبينك. فلما جاءا بطعامهما قاما فقتلاهما، ثم قعدا على الطعام فأكلا منه، فماتا». وأعلم ذلك عيسى رواه الطبري في تفسيره.

والآن أيهما تفضل أن ترضى بما قسمه الله لك فتكون مؤمناً حقاً أم تطمع فيما عند الآخرين وليس لك فيه من حق؟

الحقد من أمراض القلوب:

الحقد هو إظهار مشاعر كره وبغض للآخرين دون سبب منهم فهو غليان القلب بأحاسيس مضادة نحو الآخرين وتجد في القلب ناراً تتأجج حتى تصل إلى درجة الانصهار فتذيب كل من يقترب منها فالحقد مرض نفسي ينشأ عن وسوسة النفس فتدفع الإنسان إلى عدم الرضا عن الله سبحانه وتعالى وقد قيل من دواعي الحقد أن يكون في الحاقد شح بالفضائل وبخل بالنعم فيسخط على الله في قضائه ويحقد على ما منح من نعم والحقود من الهم كساقي السم فإن سرى سمه استراح همه.

ويبرز هنا سؤال ما أسباب الحقد؟

1 - ضعف في الإيمان وعدم الرضا بقضاء الله سبحانه وتعالى

2 - امتلاء قلب الحاقد للبغض الشديد لكل شيء حتى يخيل إليك أنه يبغض نفسه.

فلا تحقد على أخيك المسلم ولا تكرهه وألا تحمل في قلبك له ضغينة أبداً وحاول أن تتقرب له بالود والحب دائماً كما في الحديث عن أنس بن مالكٍ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال: نعم قال أنسٌ: وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا فلما مضت الثلاث ليالٍ وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله: إني لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرٌ ثم ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرارٍ يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرارٍ فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به فلم

أرك تعمل كثير عملٍ فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ فقال: ما هو إلا ما رأيت قال فلما وليت دعاني فقال ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق» صحيح رواه أحمد. انظر إلى طهارة النفس والقلب تدخل صاحبها الجنة ولكن مع طاعة الله ورسوله وأداء الفروض والواجبات التي أمر بها الله تعالى.

الحسد من أمراض القلوب:

الناس حاسد ومحسود ولكل نعمه حسود وأول ذنب عُصي به الله في السماء حيث حسد إبليس اللعين أبانا آدم عندما أبى أن يسجد له وأول ذنب عُصي الله به في الأرض حيث حسد قابيلُ هابيلَ فقتله ومن أنواع الحسد حسد الكفار للأنبياء وحسد أخوة يوسف لسيدنا يوسف عليه السلام وحسد المشركين للرسول ﷺ والمؤمنين وحسد أهل الكتاب للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقد قيل ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم.

إن الحسود الظلوم في كرب ذا نفس دائم ::: يخاله من يراه مظلوماً يظهر منها ما كان على نفس ::: مكتوماً

والحسد نوعان: مذموم ومحمود، فالمذموم أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]. وإنما كان مذموماً لأن فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق. وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السلام: **«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»**. صحيح رواه البخاري هذا الحسد معناه الغبطة. وحقيقتها: أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢] تفسير القرطبي.

نافس على الخيرات أهل كل امرئ في ::: العلا فإنما الدنيا أحاديث فوارث منهم

شانه كادح ::: وموروث

واعلم أن من موانع حبك لأخيك أن تحسده على ما رزقه الله سبحانه وتعالى ولم الحسد وأنت تعلم أن الله هو الذي رزقه وأعطاه هذه النعمة التي تحسده عليها؟ ولو شاء لأنعم عليك بها أو بمثلها فتوكل على الله الذي رزقك واجعله هو حسبك

ألا قل لمن كان لي حاسداً سأت على الله ::: أتدري على من أسأت الأدب إذا أنت لم في فعله ::: ترض لي ما وهب

ولماذا الحسد؟

وقد نهانا الرسول ﷺ عن الحسد الذي من شأنه أن يوجد الشحناء والبغضاء كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا تَنَافَسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوانا»** رواه أحمد تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 2679 في صحيح الجامع. فيجب عليك أن تفرح لفرح أخيك وأن تحزن لحزنه فإذا أصابته نعمة من ربه تمنيت له الخير والسعة في الرزق وإن أصابته ضراء تقف بجانبه وتمد له يد العون هذه هي الأخوة فاحرص عليها وأن تدعو له كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١].

يعمى الحسود عن لقاء ربه الله يعلم حيث ::: جهلاً فقلت لـه مقالة حازم مني ومنـك يجعل فضله ::: ومن جميع العالم

عن الأصمعي قال: بلغني أن الله عز وجل يقول:

الحاسد عدو نعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي رواه البيهقي في شعب الإيمان.

ولماذا الحسد؟

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من الحسد لأنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»** أَوْ قَالَ الْعُشْبَ أبو داود تحقيق الألباني (ضعيف) انظر حديث رقم: 2197 في ضعيف الجامع.

أعطيت لكل امرئ من نفسي يطوي على ::: الرضا إلا الحسود فإنه أعياني عندي جمال
حنق حشاه إذا رأى وأبى فما ترضيه إلا ::: غنى وفضل بيان وهلاك أعضائي وقطع
ذلتي ::: لساني

واعلم أخي المسلك أنه لا يجتمع أبداً في قلب مؤمن الإيمان الصادق والحسد الهالك فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالْحَسَدُ**» صحيح رواه النسائي.

قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه ويطلب عثراته.

الله سبحانه خالق كل شر، وأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من جميع الشرور. فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ [الفلق: ٢] وجعل خاتمة ذلك الحسد، تنبيهاً على عظمة، وكثرة ضرره، والحاسد عدو نعمة الله. قال بعض الحكماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه: **أحدها**: أن أبغض كل نعمة ظهرت على غيره. **وثانيها**: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: لم قسمت هذه القسمة؟ **وثالثها**: أنه ضاد فعل الله، أي أن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله. **ورابعها**: أنه خذل أولياء الله، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم. **وخامسها**: أنه أعان عدوه إبليس. وقيل: الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة، ولاينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً وغماً، ولا ينال في الآخرة إلا خزناً واحتراقاً، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً. وروي: أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غل أو حسد للمسلمين**» تفسير القرطبي سورة العلق. والله سبحانه وتعالى أعلم.

علاج الحسد:

الاغتسال: أمر رسول الله ﷺ بالاغتسال من الحسد فقال ﷺ قَالَ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**» صحيح رواه مسلم.

الرقية الشرعية: ومن سنته ﷺ رقية كل محسود كما فعل معه جبريل عليه السلام فروي: «**أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ فَقَالَ: نَعَمْ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ**» صحيح رواه مسلم.

عدم الإكثار من مخالطة الحسود: يجب عدم الإكثار في مخلطة الحسود فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُ بِهَا الشَّيْطَانُ وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ»** أحمد.

وقال الشاعر:

ليس للحاسد إلا ما حسد وأرى الوحدة ::: فله البغضاء من كل أحد جليس السوء خير للفتى من ::: فانهض إن قعد

الشماتة: إن الشماتة من أمراض القلوب ومعناها: الفرح ببلية أو مصيبة من يعاديك أو من تعاديه؛ فيجب على الإنسان سوي النفس نقي السريرة ألا يفرح في مصيبة أخيه المسلم فيظهر له شماتة في قلبه تجاهه. وقد تكون هذه الشماته رحمة له حيث يقف الله بجانبه في مصيبته وبلوى على الشامت كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«لا تُظْهِرْ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»** حسنه الترمذي وضعفه الألباني انظر حديث رقم: 6245 في ضعيف الجامع.

والإنسان الشامت الذي يفرح في مصيبة غيره لا محالة أن في قلبه مرض فيكفي أنه يظهر عداوته لغيره وقد كان ﷺ يتعوذ منها فيقول: **«تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ»** رواه البخاري

فيجب على المسلم تجاه أخيه المسلم ألا يفرح بمصيبة ألمت بأخيه أو بنازلة نزلت عليه لأن ذلك من شأنه زيادة البعضاء والعداوة بين المسلمين وهذا خلاف ما أوصى به رسول الله ﷺ حين قال: **«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لاخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»** صحيح رواه البخاري.

الشك والريبة: الريبة معناها: قلق النفس واضطرابها وسوء الظن بمن حوله ووضعهم في مواضع التهمة والتردد ومجاهرتهم بذلك فتظهر فائدتها وهي الرهبة والانزجار وإن لم تكن ريبة - أي سوء ظن - تورث البغض والفتن. قال ﷺ : **«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ»** أحمد تحقيق الألباني(صحيح) انظر حديث رقم: 3378 في صحيح الجامع.

من علاج أمراض القلوب:

الهديـــــة: إن مـن عـلاج أمـراض القلـوب: الإنفـاق علـى المسـاكين والفقـراء، فبهـذه النفقـة يـذهب الحقـد مـن قلـوبهم بـل تزيـدهم حبـاً لمنفقهـا حيـث أعـانهم علـى متاعـب الحيـاة ومواجهـة مصـاعبها وكـذلك إهـداء الهديـة للأقـارب والأصـحاب الـذين لا يسـتحقون النفقـة فتكـون دلالـة علـى المحبـة والمـودة ويعـم الحـب علـى الجميع كما قال ﷺ : **«تَهَـادَوْا فَـإِنَّ الْهَدِيَّـةَ تُـذْهِبُ وَغَـرَ الصَّـدْرِ»** أحمد تحقيق الألباني (ضعيف) انظر حديث رقم: 2489 في ضعيف الجامع.

الصوم: عليكم بالصوم فالصوم طهارة للنفس زكاة للبدن فعن النبي ﷺ قَالَ: **«أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ صَوْمُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَـهْرٍ»** النسائي تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 2608 في صحيح الجامع.

* * *